في رحلة الإيمان والحج المبرور

التوحيد تحاور

مستشار مكتب سماحة مفتى عام المملكة

مكة المكرمة :- جمال سعد حاتم

الماسونية منظمة سرية صهيونية تندس في كل مجتمع خلف غايات متعددة

الخوف على الصحوة إذا أنحدر التوجيه فيها لما أنحدرت إليه الأمم الأخرى

إذا لم يبذل العلماء جهدًا في الإيضاح وحسن التوجيه كان أصحاب الأهواء والجهله سيتصدرون الأمر

المسلمون لا يعودون إلي مجدهم الغابر ،إلا باليسير من المنهج الذي صار منه أسلافهم

في بقعة من أطهر بقاع الأرض وفي مكة المكرمة ... التقت التوحيد بواحد من أولئك الذين يحملون هموم الأمة ... ليؤكد الدكتور محمد الشويعر على أن الماسونية منظمة صهيونية خطيرة تندس في كل مجتمع .. يتصورها المسلم دعوة إسلامية ، ويتخيلها النصراني تتحمس للكنيسة ، ويراها البوذي نصيرة لمبادئ بوذا ... وقد ابتكرت الماسونية أساليب دنيئة للالتقاء كنوادي الروتاري ، ومقاهي القمار ، والكمبيوتر ، والنوادي الرياضية .. وتحدث فضيلته عن الصحوة الإسلامية وضرورة ترشيدها وتسديد أخطائها ... وكيفية الرد على تيارات الاستعجال والتصادم .. والدور الحقيقي الذي نستطيع به العودة إلى حضارتنا التي سادت العالم وتفوقت .. وحققت مجتمع العدل والكفاية .... متحدثًا عن أنصار السنة في مصر ... وعن مجلة التوحيد ... والكثير مما أفاض به علينا من خلال الحوار التالي :

بطاقة تعارف

د. محمد بن سعد الشويعر

- ولد بشقراء حاضرة محافظة الوشم التي تبعد عن الرياض ٢٠٠ كم، وفيها نال الابتدائية. ثم انتقل للرياض لمواصلة الدراسة حيث نال الجامعية من كليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض. أما الماجستير ثم الدكتوراه فمن الأزهر بالقاهرة، بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٧م.

- **يشغل** الآن منصب مستشار بمكتب سماحة المفتي العام للمملكة، ويقوم برئاسة تحرير مجلة البحوث الإسلامية التي تصدر عن هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

- له مساهمات مستمرة منذ عشرين عامًا في الكتابة في صحف ومجلات المملكة: الجزيرة، الدعوة، الفيصل، المجلة العربية، المسلمون، الدارة، الرياض، وغيرها من المجلات.

وفي الخارج: البعث الهندية، الأمة بالهند، الداعي بالهند، النور بالمغرب، وقبلها: الاعتصام بمصر، المجتمع بالكويت، فجر الإسلام بتونس، البيان بالسودان، المبعث بأمريكا.

- **وإلى** جانب الابحاث والمقالات فقد صدر له سبعة عشر كتابًا: منها: حماية الإسلام للمرأة المسلمة، المرأة بين نور الإسلام وظلام الجاهلية، عبد الله بن رواحة رائد شعر الجهاد في الإسلام، العقوبة في التشريع الإسلامي، مكانة حسن الخلق، تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، الجريمة والوقاية منها، وله تحت الطبع: وقفات مع أبي رية في الرد على آرائه بالتوفيق بين الديانات الثلاث، الغيبة والنميمة وأثرهما في المجتمع، الشباب والتيارات المعاصرة.

● **التوحيد:** الماسونية تعد من أقدم وأخطر الحركات اليهودية التي تعمل من أجل فرض السيطرة اليهودية على العالم.. وتسخر مقدراته لخدمة اليهود وبناء الهيكل المزعوم مستخدمة أساليب عديدة كالانحلال الخلقي والفساد لتحقيق أهدافها: فما هي الكيفية التي يتم من خلالها مواجهة مثل هذه الحركات؟

- **عن الماسونية:** فهي منظمة سرية صهيونية خطيرة، تندس في كل مجتمع خلف غايات متعددة. ولا يبين خطرها إلا بعد التقدم في المراتب التي تبلغ ٣٣ مرتبة، ففي البداية يتصورها المسلم دعوة إسلامية، ويتخيلها النصراني تتحمس للكنيسة، ويراها البوذي نصيرة لمبادئ بوذا، والهندوسي يتخيلها تهتم بستيا ورام، وتعطف على البقرة، وهكذا كل نحلة وملة يراها المتعصبون جاءت لحماية معتقداتهم. لأن القَسَم الذي يؤديه على ما هو مقدس عنده، فالمسلم يجعلونه يقسم على المصحف،

واليهودي على نجمة داود، والنصراني على الصليب، وهكذا دواليك.

ومع كل هذا فهو لا يعرف رجالات هذا المعتقد لسريتهم ولأنهم يلبسون أقنعة تحجب عنه معالم شخصياتهم. ولكن بعد المرتبة ٣٠ تنكشف الأقنعة، ويتضح لمن انتمى إليها أنه مسخر للمبادئ الصهيونية، وخدمة شعارهم النجمة السداسية الذي هو شعار دولة اليهود التي يرونها تحكم العالم.

ويفاجئ بالتهديدات وأن حياته مهددة بالزوال في أي انحراف عن المبدأ الذي أقسم عليه وأن عليه أن يطيع الأوامر التي تأتيه من مصادر سرية دون تردد.

وقد ابتكروا لنا أساليب للالتقاء كنوادي الروتاري ومقاهي القمار والكمبيوتر والنوادي الرياضية. ومن هناك باسم الهوايات تعطى الأوامر حتى لا ينكشف قادتها وكبار أعضائها.

وخير من كشفها الدكتور الزعبي في كتابه «الماسونية في العراء»، لأنه كان منتظمًا فيها وخرج منها وقد حاولوا قتله عدة مرات. لأن من سمات هذه المنظمة الاغتيالات السرية، وتصفية من يخرج عن الخط المراد.

وهي ضد الإسلام أولًا وقبل كل شيء، وفي سبيل الترغيب فيها، كل شيء محرم شرعًا مباح فيها من جنس وخمر ومخدرات وقتل.

ولا سبيل لمواجهة خطر الماسونية والتصدي لأهدافها، إلا تربية الشباب على منهج الإسلام السليم وتفهيمهم لأهدافه النبيلة وعمق ما تدل عليه تعاليمه.. برفق وحكمة. لأن الماسونية قد تنشط أمام الشباب باسم الإسلام لتبث فيهم سمومًا يتقبلونها نتيجة الجهل وقصر النظر فيأتي مع ذلك الغلو والتطرف.. ويجنحون بشدة إما يمينًا وإما شمالًا، ودين الإسلام منهجه الوسطية في كل شيء.

إن تعظيم حرمات الله والاهتمام بأوامر الدين الإسلامي: أمرًا ونهيًا، والسعي وفقها في العمل، وتكرار ما يجب في هذا من العلماء تذكيرًا ومدارسة، لما يعين بإذن الله في سد المنافذ على الماسونية وغيرها من المبادئ الهدامة، لئلا تستشري في المجتمع الإسلامي فإذا عُظِّمت تلك الحرمات ضيقت السبل على جرثومة الماسونية أن تنمو في البيئة الإسلامية.

● **التوحيد**: الصحوة الإسلامية هي أعظم ما يمتلكه المسلمون اليوم ونحن نرى من وجهة نظرنا ضرورة ترشيد هذه الصحوة. حرصًا على أن تكون أخطاؤها مسددة ومرشدة حتى تمضي على صراط مستقيم لا تحيد عنه يمينًا ولا يسارًا.

– ما هو المظهر الفكري للصحوة؟ وكيف نرد على تيارات الاستعجال والتصادم؟

– **وعن الصحوة الإسلامية**: لا شك أنها شيء جميل إذا حرص العلماء والدعاة على الأخذ بزمامها وإرشاد الشباب إلى ما ينفعهم وتبصيرهم بأمور دينهم، وذلك بشرح تعاليم الإسلام ومقاصد الشريعة الأساسية لا أن يترك لكل جاهل وصاحب غرض يفسر الأمور على هواه وعلى ما يصف له لسانه.. فإن أعداء الله وأعداء دينه يقودهم عدو الله إبليس إلى حيل عديدة. ويزين لهم الشرور على أنها محاسن ويجمل لهم ما يرديهم ويضر بهم، فهو يأتي باسم المعصية فإن وجد عند الإنسان شعورًا دينيًا جاءه من ناحية الطاعة ليفسد عليه دينه. فيزين له ما كان قبيحًا، ويحبب إليه ما تأباه شعائر دين الإسلام السمحة. وقد حصل مثل هذا في العصر الأول عندما خرج أناس باسم الدين ضد علي رضي الله عنه قاتلهم في حروراء وقد فرح

علي رضي الله عنه عندما وجد بين القتلى : ذا الثديّ .. لأن رسول الله ﷺ قد وصف له هؤلاء القوم بقوله : « تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم وعبادتكم إلى عبادتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، إذا لقيتموهم فقاتلوهم شرَّ قتال ..» .

وفرح علي رضي الله عنه جاء من نظرته لأولئك الذين كانوا يكفّرون الصحابة والمسلمين الذين وصفهم أحد قادتهم قطري بن الفجاءة بكلام منه قوله : تعيرونني بأصحابي وأنهم شباب ، وهل كان أصحاب محمد إلا شبابًا شباب موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال أفضاء عبادة وأطلاح سهر ، يريد أنهم عباد بالليل ، مقاتلون في النهار .

- **ولذا** فإن العلماء يجب عليهم الأخذ بالمبادرة ، وحسن التوجيه ، والإنكار على الغالي من شباب الصحوة أو المفسر للأمور بغير ما جاءت عن الله و لا عن رسوله ، وتحذيرهم من علماء السوء ، ومن الذين يفتون بغير ما أنزل الله .

فقد دخل عبد الله بن سبأ اليهودي في عهد الخلفاء الراشدين الإسلام منافقًا ليفسده من الداخل وتبعه كثير من المتحمسين بدون روية ، ودخل بعض من أصحاب الأهواء فكثرت الآراء والفرق ، وتعددت النحل وتبعتها الفتن . وقد توسع علماء الإسلام في الرد على أصحاب هذه الفرق وبيان فساد أقوالهم وتعصباتهم فالشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » وابن حزم في كتابه « الفصل في الأهواء والملل والنحل » وابن تيمية في « ردوده وفتاواه » وفي الرد على المنطقين ، وغيرهم من علماء الإسلام رحمهم الله قد بذلوا جهدًا وخدموا من بعدهم في كشف أولئك وآرائهم .

والصحوة الشبابية إذا لم يبذل العلماء جهدًا في الإيضاح وحسن التوجيه فإن أصحاب الأهواء وطلاب البروز والجهلة سيتصدرون الأمر ، وسيكونون هم الموجهون ، والشاعر يقول :

أعمى يقود بصيرًا لا أبًا لكم
قد ضل من كانت العميان تهديه

وليس المراد بذلك أعمى البصر ولكن المراد أعمى البصيرة . وقد خشي ﷺ على أمته العلماء المضللين الذين يفتون بغير ما أنزل الله فيضلون ويضلون .

ولم يضل بنو إسرائيل إلا لأنهم اتبعوا الأهواء لفساد العلماء بعد أن تركوا عهد الله الذي أخذ عليهم بتبيين شرع الله ، فتصدر بعدهم جهال عدلوا وبدلوا وقالوا في شرع الله بما تصف الألسن وتهوى الأفئدة ، فاستحقوا مقت الله وغضبه .

● **التوحيد** : هل ترون من وجهة نظركم أن هناك مخاوف على الصحوة ؟ وكيف تبدد تلك المخاوف ونقضي على جذورها ؟

- **والخوف** على الصحوة إذا انحدر التوجيه فيها لما انحدرت إليه الأمم الأخرى ممن أبان الله عنهم في القرآن الكريم وأخبر عنهم رسولنا المصطفى ﷺ وحذَّر كبار الصحابة من بوادر ذلك لما ظهر أمامهم كابن مسعود وابن عباس وعمر بن الخطاب ، يقول ابن عباس لفئة ظهرت أمامه : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول : قال الله وقال رسوله ، وتقولون : قال أبو بكر وقال عمر .

ويروى لابن مسعود قوله : أنتم تستبطئون المطر من السماء ، وأنا أستبطئ الحجارة من السماء .

ولذا فإن من المظاهر التي يجب أن يركز عليها العلماء والدعاة :

- الاهتمام بالعقيدة وترسيخها في القلوب .
- نبذ الفكر الذي طرأ على الناس بديلًا عن العقيدة .

- الاهتمام بالأمور التعبدية وبيان الحكمة منها إن عرفت حتى يبدأ الشباب في التفكير السليم.

- ترسيخ طاعة اللّه وطاعة رسوله، وطاعة ولاة الأمر من الحكام والعلماء.

- تأكيد ما يهتمون به من الولاء والبراء، بأن الولاء لمن أمر اللّه بالولاء له وطاعته وأن البراء لمن تبرأ اللّه منهم في سورة التوبة.. وتوضيح أراء العلماء في تفسيرهم لسورة التوبة على حسب ما تصف الأهواء التي أفسدت الشباب وغيرت مسيرتهم وفهمهم لحقائق ديننا ودلالات نصوصه.

● **التوحيد**: ما هو الدور الحقيقي الذي نستطيع به العودة إلى حضارتنا التي سادت العالم وتفوقت ما يزيد على ١٤ قرنًا من الزمان ونحقق مجتمع العدل والكفاية.

- **والمسلمون** لن يعودوا إلى مجدهم الغابر، وحضارتهم التي سادت إلا بالسير من المنهج الذي سار عليه أسلافهم، ونبذ كل دخيل، كما قال الإمام مالك رحمه اللّه: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها.

ومعلوم أن أولها لم يصلح إلا بالإسلام وفق كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ والعودة للعلماء في فهم ما التبس عليهم كما قال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ولن يصلح أمرهم في آخر الأمر وعندما تتكاثر الشرور إلا بالعودة للمنبع الأول والاسترشاد من آراء العلماء المعتبرين في فهم دلالة ما أمر اللّه به في كتابه الكريم وترك ما نهى عنه. وفهم ما تعنيه سنة رسول اللّه ﷺ، فهي الوصية من رسول اللّه ﷺ بقوله الكريم: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما: كتاب اللّه وسنتي». وَحَرَصَ الخلفاء الراشدون ثم مَن بعدهم مِن الصحابة والتابعين على ترسيخ هذا المفهوم..

وما نشأت الفرق المنحرفة في تاريخ الإسلام كالمرجئة والقدرية، والمعتزلة والكلابية، وما تسلل أهل الأهواء من رواسب عقائد وأفكار الأمم المغلوبة، وما انتشرت الفلسفة لدى المسلمين وغوى بها من غوى، وضاع في متاهاتها من ضاع، إلا بالتخلي عن فهم كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ونبذ تعليماتهما واتباعهم لآراء زيد أو عبيد.. فتخلوا عن دين اللّه، مما أوجب رفع البركة عنهم. وبذلك افترقت أمة محمد إلى فرق كالأمم الأخرى كما قال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». قيل: من هي يا رسول اللّه؟ قال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي» وفي رواية بدون كلمة «اليوم».

نسأل اللّه السلامة والعافية من مضلات الفتن، ومن نزغات الشيطان ونسأل اللّه للعلماء الهداية والرشاد وسداد القول والعمل، وللعامة حسن الاستجابة، والبعد عن الأهواء إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فإذا صلحت العقائد صلحت النفوس، وإذا صلحت النفوس صلحت المجتمعات.. وإذا صدق العلماء وأخلصوا هيأ اللّه لهم من العامة من يستجيب ويأخذ عنهم.. والعدالة لا تتحقق في أي مجتمع إلا بصدق وإخلاص القادة وهم العلماء وولاة الأمر الموجهون لزمام الأمة، وشدتهم مع كل منحرف وفق شرع اللّه، لأن اللّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عثمان بن عفان رضي اللّه عنه.

● **التوحيد**: هل من كلمة توجهونها إلى جماعة أنصار السنة المحمدية في مصر.

- اما الكلمة لجماعة أنصار السنة :

فأرجو المعذرة إذْ كيف يوجه الشخص شيوخه وأساتذته فلأنصار السنة المحمدية بمصر اليد الطولى في محاربة البدع ونشر السنة في مصر، محاربين أمورًا كثيرة ومناوئين لعقائد شتى فأيدهم الله، وتنامى عددهم وزاد نشاطهم. فهم القدوة ومنهم نستمد وأوجه نفسي والدعاة من الجماعة إلى ما وجهنا القرآن الكريم إليه، وهو الرفق والحكمة في الدعوة، وألا يتولاها إلا العالم بما يدعو اليه العالم بما ينهى عنه والصبر في هذا السبيل فإن من صبر ظفر.. وبحكم دراستي في مصر فإنها بلاد تربتها خصبة للدعوة، وقلوب أبنائها سريعة الاستجابة، ولذا فإن عماد الدعوة هناك وفي كل مكان القدوة الحسنة، وحسن الدخول إلى القلوب. وبشاشة الوجه، وحسن الاستقبال للناس، وتحين المناسبات، لتقدم الدعوة مع كل فئة بما يناسبها كالدواء الذي يصفه الطبيب قدرًا وكمًا بحسب كل حالة.

● **التوحيد :** وماذا عن مجلة التوحيد؟

الرأي في مجلة التوحيد :

بحق هي مجلة متميزة، وذات هدف واضح حول ترسيخ العقيدة، وقد تطورت في السنوات الأخيرة تطورًا ملحوظًا، أتمنى الإكثار من الأحاديث في العقيدة وتصحيحها. ورغم دسامتها وتنوع موضوعاتها إلا أن القارئ يطمع دائمًا بالمزيد وحبذا لو عولج فيها موضوعات: الصوفية، والرد على شبهات المستشرقين، وشخصية العدد من علماء السلف الصالح، وكتاب وقارئ للتعريف ببعض الكتب المفيد للشباب قراءتها.

وزاوية تعريفية – ببعض البلاد الإسلامية أو مدنها. وصفحة من التاريخ يختار لها من المواقف الفريدة في تاريخ الإسلام: جهادًا أو بذلًا، أو مناظرة أو ردًا أو غير ذلك.

وبين الحين والحين يعرف بشخصيات أسلموا ويركز على البارزة علميًا أو اجتماعيًا أو في مراكز العبادة كالقساوسة وأحبار اليهود الذين يكونِ إسلامهم شوكة في نحور بني قومهم وغيرها.

مكة المكرمة /

جمال سعد حاتم

في العدد القادم

ابتداء من العدد القادم بإذن الله وعلى صفحات مجلة التوحيد نقدم إليكم إضافة جديدة إلى أبواب المجلة وهو باب (ردود على رسائل قراء التوحيد). ومن خلال هذا الباب الذي نرُد من خلاله على رسائلكم وإقتراحاتكم وما تقدمونه إلينا من نصح وتوجيه من خلال حرصكم إلى أن تكون مجلة التوحيد وكما وصفها العلماء في موسم الحج بأنها مجلة السلف في العالم الإسلامي ونحن في انتظار رسائلكم من خلال هذا الباب الجديد. راجين المولى عز وجل أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه. وأن يجعل عملنا خالصًا لوجهه سبحانه. إنه نعم المولى ونعم المصير.

سكرتير التحرير

حب الوطن من الإيمان

بقلم

د. محمد بن سعد الشويعر

كلمة مأثورة يعتقدها بعض الناس حديثاً ، وليست كذلك ، إذ المهتمون بالحديث سندا ومتنا ، وجرحا وتعديلا ينفون كونها حديثا ، يقول العجلوني في "كشف الخفاء" : قال الصنعاني : موضوع ، وقال في "المقاصد" : لم أقف عليه ، ومعناه صحيح ، وردّ القاري قوله : ومعناه صحيح بأنه عجيب ، قال : إذ لا تلازم بين حب الوطن ، وبين الإيمان ، قال : وردّ أيضا بقوله تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم .. ﴾ الآية [النساء : ٦٦] . فإنها دلت على حبهم وطنهم ، مع عدم تلبسهم بالإيمان ، إذ ضمير ﴿ عليهم ﴾ للمنافقين ، ولكن انتصر له بعضهم بأنه ليس في كلامه أنه لا يحب الوطن إلا مؤمن ، وإنما فيه أن حب الوطن لا ينافي الإيمان .. انتهى .

كذا نقله القاري ، ثم عقّبه بقوله : ولا يخفى أن معنى الحديث : حب الوطن ، من علامة الإيمان ، وهي لا تكون إلا إذا كان الحب مختصًّا بالمؤمن ، فإذا وجد فيه وفي غيره ، لا يصلح أن يكون علامة قوله ، ومعناه صحيح ؛ نظرًا لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين : ﴿ وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل اللّه وقد أُخرجنا من ديارنا ﴾ [البقرة : ٢٤٦] ، فَصَحَّتْ معارضته بقوله تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا .. ﴾ الآية [النساء : ٦٦] ، الأظهر في معنى الحديث إن صح مبناه ، أن يحمل على أن المراد بالوطن الجنّة ، فإنها المسكن الأول لأبينا آدم ، على خلاف فيه ؛ أنه خلق فيها ، أو أدخل بعدما تكمل وأتم ، أو المراد به مكة ، فإنها أم القرى ، وقبلة العالم ، أو الرجوع إلى اللّه تعالى ، على طريقة الصوفية ، فإنه المبدأ والمعاد ، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : ٤٢] ، أو المراد به الوطن المتعارف ، ولكن بشرط أن يكون سبب حبه صلة أرحامه ، أو إحسانه إلى بلده ، من فقرائه وأيتامه ، ثم التحقيق ؛ أنه لا يلزم في كون الشيء علامة له اختصاصه به مطلقًا ، بل يكفي غالبًا ، ألا ترى إلى حديث : (حسن العهد من الإيمان) ، و(حب العرب من الإيمان) ، مع أنهما يوجدان في أهل الكفر . انتهى .

ومما يدل لكون المراد به مكة ، ما روى ابن أبي حاتم عن الضحاك ، قال : لما خرج النبي صلى اللّه عليه وسلم من مكة ، فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل اللّه : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ﴾ [القصص : ٨٥] ، قال : إلى مكة ، وللطبراني في "غريب الحديث" ، عن الزهري قال : (قدم أصيَّل - بالتصغير - الغفاري على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من مكة قبل أن يضرب الحجاب ، فقالت له عائشة : كيف تركت مكة ؟ قال : اخضرَّت جنباتها ، وابيضَّت بطحاؤها ، وأغدق

إذخرها ، وانتشر سلمها) الحديث .. وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبك يا أصيِّل لا تحزني » ، وفي رواية : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ويْهًا يا أصيِّل تدع القلوب تقرَّ » « كشف الخفاء » (١/ ٣٤٥، ٣٤٦) .

وقال الألباني في « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » تحت رقم (٣٦) : « حب الوطن من الإيمان » : موضوع ، كما قال الصنعاني (ص٧) وغيره ، ومعناه غير مستقيم ، إذْ أن حب الوطن كحب النفس والمال ونحوه ، وكل ذلك غريزيّ في الإنسان ، لا يُمدح بحبه ، ولا هو من لوازم الإيمان ، ألا ترى أن الناس كلهم مشتركون في هذا الحبّ ، لا فرق في ذلك بين مؤمنهم وكافرهم . (١/٥٥) .

وفي « مختصر المقاصد الحسنة » للزرقاني ، جاء تحت رقم (٣٦١) فقال : « حب الوطن من الإيمان » : لا أعرفه ، ثم علَّق عليه في الحاشية المحقق د. محمد الصباغ فقال : موضوع ، انظر « المقاصد » (ص١٨٤) ، و« الدرر » (ص٢٠٠) ، و« التمييز » (ص٦٥) ، و« الكشف » (١/ ٣٤٧) ، و« الفوائد » للشوكاني (ص٢٦٣) ، وانظر في الحجامة « مجمع الزوائد » (ص٩٣) . « مختصر المقاصد » (ص١١٠) .

فإذا أدركنا من هذا أن هذا الأثر موضوع ، ولا يصح نسبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الديار بأرضها وشجرها جماد ، لا تحس بهذه المحبة إن وجدت ، ولا يتميز عند الإنسان شجر عن شجر ، ولا تربة وحجارة عن تربة وحجارة ، إلاَّ بقدر المنفعة ، وإنما الذي يعلق بذهن الإنسان في الديار والأوطان ، ما يتعلق بذكرياته وأنسه ، لأن المحبة مقترنة بما يصاحبها من أمور سنحت مع ذكريات النفس ، وتعلَّقت بالقلب ، وبنقيضها البغض والكراهية ، إذا كان قد مرَّ بالإنسان في موطن من الأوطان ، ومرتع من المراتع ، ما يكدر صفو العيش ، أو ينغص بهنية في الاستقرار ، من أعمال وتصرفات تؤثر بالإنسان ، في نفسه ، أو ماله ، أو في مشكلات مع أحد أفراد أسرته أو مجتمعه ، فإن الأوّل : يألف الديار ، ويحن إليها ، ليرودها بين حين وحين ، والثاني : ينفر منها ويتحاشى حتى من ذكر اسمها ، أو اسم من يسكنها ، وقد يتجاهل حتى أقاربه ، سواءً كان مؤمنًا أو كافرًا ، فالأرض بتربتها وشجرها لم تسئ إليه ، ولم تُحسن إليه ، لأنها جماد ، وإنما المسيء أو المحسن من يسكن هذه الديار ، كما يقول الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلادنا بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

فالبشر في الأوطان هم الذين تنطبع بهم وبأعمالهم النفوس حبًّا ، أو يؤثرون بغضًا ، حيث لم نسمع أن إنسانًا نفر من بلد ، لأن حجرًا فيها ضربه ، أو بهيمة نطحته أو رفسته ، أو نخلة سقط منها قريب له ، فأعاقته أو قتلته ، ولا نقيض ذلك في دوافع الحب أو الكره ، خذ نموذج هذا من المجنون الذي كان يتوجد على دياره ، ومراتع صباه ، ولما مرَّ بها صار يقبل

جدرانها وتربتها ، وقد علل هذا بأنه ليس حبًّا في التربة ، ولا أنسًا بالديار ، ولكن لأنها تذكره بليلاه التي كانت تسكن هذه الديار ، فكان الحب لمن سكنها لا لها ، حيث يقول :

مَررتُ على الديارِ ديارُ ليلى
أقبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

ويقول ابن الرومي ضمن قصيدة طويلة في حب الديار :

وحبّب أوطان الرجال إليهمو
مآرب مضّاها الشباب هنالكا

وهذا تعبير صادق عن أن حب الديار مِنْ حب أهلها ، والأنس بهم ، ومن حب الإنسان إلى تمني العودة إلى فترة من عمره ، هي سن النضج والتفتح ، وريعان الشباب ، وحيوية الصبا ، حيث إن تلك الحقبة من عمر الإنسان هي التي يتمنى بقاؤه فيها مستقرًّا ، ولكنه مطلب عسير ، لما في الشباب من حيوية وتفتح ، كالزهرة حين تتفتح بالنسبة للنبات ، ولما فيه من انبثاق للأماني ، وتطلع للأمنيات ، كانبثاق الشمس في الجوّ الربيعي ، ذلك أن نذير الكبر ، وهو الشعرات البيض التي تغزو مفارق الإنسان ، هو إيذان بتخطي مرحلة الشباب التي هي قمة الرسم البياني في المقياس الهرمي لحياة الإنسان ، حيث يرى المختصون بدراسة جسم الإنسان أن الله – جلّت قدرته – قد أودع فيه خصائص وخلايا ، تبدأ نشاطها وتتكاثر منذ الولادة ، في بناء الجسم وتزويده بالقوة والدفاع عن كل طارئ على الجسم ، ومكافحة كل دخيل وطارئ على أنسجته ، حتى تنتهي مرحلة الشباب وهي أربعون سنة من العمر ، حيث يبلغ السُلَّم البياني ذروته ، على حد تقسيمهم لعمر الإنسان ؛ طفولة ، ثم فتوة ، ثم الشباب ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة والهرم .

وأجدادنا العرب قديمًا وصفوا التقسيم كما يلي : طفل ، ثم يافع ، ثم فتى ، ثم شاب ، ثم كهل ، ثم شمط ، ثم شيخ ، ثم هرم ، فزادوا فيها مرحلتين ، وهذه اصطلاحات .. ولا مشاحَّة في الاصطلاح .

والسلم الهرمي يبدأ في الهبوط من الأربعين ، وهذا إيذان بأن القدرات الجسمانية بما فيها النواحي الصحية ، تبدأ في الانحدار ، بحسب المؤثرات حول الإنسان من نفسية وبيئية وصحية ، وتبدأ المقاومة في الضعف .

والقرآن الكريم قد سبق هؤلاء بخمسة عشر قرنًا في دراستهم هذه إلى الإبانة : بأن الشدة في سن النضج هي الأربعين ، يقول سبحانه في سورة الأحقاف : ﴿ حتى إذا بلغ أشدَّه وبلغ أربعين سنة ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

فالإنسان إذا عاش في مكان وانطلق في التعامل مع أهله ، وفق ما يأمر به دين الإسلام ، من حيث المحبة والألفة ، أخذًا من قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ومن قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت " ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه " ، ومثل هذا في الحث على الإحسان للفقراء واليتامى ، وصلة الرحم ، وحسن المودة ، والإخاء بَيِّن ، ومجازاة الإحسان بالإحسان ، وغير هذا من أمور يحث عليها الإسلام ، هي من جواهره الثمينة في حسن التعامل ، وتمكين وشيجة الحب والألفة ، حيث ينتج عن ذلك حسن العشرة ، وطيب التعامل ، وصدق المودة ، مما يزيد الفرد ارتباطًا بالمجتمع ، حتى تتآلف القلوب ، ويكونوا يدًا واحدة وبنيانًا مرصوصًا ، ضد من يريد تفريق كلمتهم ، أو بث الفرقة فيما بينهم ، من حيث الولاء للّه أولاً ، وتطبيق شرعه الذي شرع لعباده ، ثم لولاة الأمور والعلماء الذين جعلهم اللّه حماة للدين ، ومدافعي كل شر وفساد يراد بالمجتمع ، ونبذ كل طارئ ودخيل .

ومن هذا المنطلق ، ووفق ما ذكر العَجْلوني فيما مرَّ بنا ، يستطيع البلاغيون أن يجدوا مخرجًا لدلالة ذلك الأثر في حب الوطن : بأن المقصود مَنْ يسكن هذا الوطن ، ومن جعل اللّه ولايته الحسنة في يده ، مِن ولاة وحكام وعلماء وعقلاء ، يقيمون شرع اللّه ، ويحرصون على تطبيق الحدود الشرعية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد السفيه وأَطْره على الحق أطرًا ، وقمع المعتدي .

ذلك أن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم أمانة التبصير للناس في أمور دينهم ، التي شرعها اللّه لهم من حلال وحرام ، ومن متشابه ومحكم ، ويُعلمون الجاهل ما خفي عليه ، وينبهون الغافل لما شرد عن ذهنه ، ويُذكرون طلبة العلم والحريصين على السؤال ما يجب عليهم ، لأن العلماء هم أكثر خشية للّه ، لعلمهم وفقههم وورعهم ، كما قال سبحانه : ﴿ إنما يخشى اللّه من عباده العلماء ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقد قال بعض العلماء : من كان باللّه أعرف ، فهو منه أخوف ، فيحفظون لهؤلاء وهؤلاء المكانة التي يستحقونها : ولاء ومحبة ، ودفاعًا عما يقوله السفهاء والأعداء من محاولة النيل منهم ، أو تخفيف مكانتهم في القلوب ، أو الانتقاص منهم .

ومن هنا يخرج البلاغيون هذه المقولة : بأن المراد الحالّيّة لا المحلّية .. أي ؛ ليس بهذه المحبة للوطن المحلّ وهو المكان ، لأنه جماد ، وإنما المقصود من يحل هذا المكان ليلتئم بهم الشمل ، ويحصل الأجر من اللّه بالمحبة المتوطدة ، والألفة المتكاملة ، لأنها محبة يوصلها الإيمان ، المقصود به وجه اللّه ، والامتثال لشرعه ، وهذا هو أمكن عرى المحبة ، التي لا توازيها مصالح الدنيا ، ولا منافسات الناس فيها وعروضها .

فالإنسان الذي يحبّ إخوانه لكمال إيمانه ، فإنه يحنُّ للديار التي هم فيها ، ويحب عملهم الصالح ، كما جاء في حديث الرجل الذي سافر من بلد إلى بلد ، ليزور أخًا له في اللّه ، وليس

بينهما مصالح أو منافع ، فأرسل إليه مَلكًا في صورة رجل ليخبره أن الله يحبه .

والديار التي فيها العلماء العارفون بالله ، فإنه يحبّ شدّ الرحال إليهم ليستفيد منهم ، ويأخذ من علمهم ، ولذا يحرص على محبتهم بأن يدافع عنهم من يتناولهم بأذى ، وليدافع عنهم بظهر الغيب ؛ ليذبّ الله عنه الشرور يوم الجزاء والحساب .

ويحب ولاة الأمور الذين يدافعون عن الأوطان ، لحرصهم على إقامة شرع الله فيها ، وتنفيذ الحدود التي بها حفظ الأمن ، وحماية الأموال والأنفس والأعراض ، ويحب كل عمل وعامل يعود على الأوطان بالخير والنفع ، ويدفع عنها الشر ، ويحبط الله به كيد الأعداء ، ويحب مكة والمدينة لفضلهما ، وفضل العبادة فيهما ، ولأن الله أوجد فيهما الأماكن المقدسة عند المسلمين ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر بشدّ الرحال **إلا لمسجديهما** ، والمسجد الأقصى بيت المقدس ، لأن ذلك عبادة لله ، والعبادة لا تكون إلا لما يحبه الله ويرضاه .

والدليل على أن المحبة ليست للتربة ولا للجماد أو الحيوان في الوطن ، أن الإنسان يسعى من مكان لمكان ليبحث عن رزقه ، فإذا تهيأ له في مكان استقر فيه ، ونسي موطنه السابق ، ولذا يقال في المثل : (وطنك الذي تُرزق فيه ، وليس الذي تُولد فيه) .

وقد أمر الله بالهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ، وترك الوطن الأصلي الذي ألفه الإنسان إذا كان الأمر يمسّ الدين ، وينال عقيدة المرء الخالصة لله ، لأن دين الإنسان ألزم عليه من وطنه ، ومصالح الآخرة مقدمة على مصالح الدنيا ، وأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم فوق رغبات النفوس والمطامع الفردية : ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [النحل : ٧٤] .

ولذا فإن الحمية في الإسلام ليست للوطن ، وإنما هي للدين ، والجهاد شرع في الإسلام لرفع راية هذا الدين لا لغيره من الشعارات ، فإذا اقترن الدفاع عن الدين بحب الوطن فذلك ما لا غضاضة فيه ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجرًا : « والله إنك لأحب البلاد إليَّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت .. » ، فخروجه صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه وعداوته له وللدعوة التي جاء بها من عند ربه ، ومحبتها في قلبه من أجْل أنها أقدس البقاع على وجه الأرض ، وفيها بيت الله الحرام ، وقد طهرها الله من الشرك عندما فتحها النبي صلى الله عليه وسلم ، وبقيت محبة مكة في قلب كل مؤمن أينما كان في أصقاع الأرض ، وبان فضلها لدى كل مسلم من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. ولذا فإن المسلم لا يقدس من البقاع إلا ما جاء فيه نص شرعي عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم .. ولا قدسية لمعابد وأوطان اهتم بها أناس مادام هذا التقديس وهذه المعابد تتنافى مع النصوص الشرعية عند المسلم .

اليهود بين الحلم و الحقيقة

بقلم / د محمد بن سعد الشويعر
رئيس تحرير مجلة البحوث ومستشار مكتب سماحة مفتي السعودية

منذ حقب التاريخ واليهود غير صادقين في وعودهم ، وغير موثوقين فيما يُعطُون من عهود ؛ لأنهم يريدون كل شيء لأنفسهم ، ولا يعطون شيئًا مما يطلب منهم ، ونظرتهم للآخرين حسبما تَغَذَّى به الفرد ، وحسبما أملاه عليه كبارهم أنهم عندهم في الكتاب ، وهذا عن عقيدة ، لأنهم يرون خداع من ليس يهوديًا والتسلط عليه ، ذلك أنهم يسيرون خلف الحاخامات - وهم رجال الدين عندهم - في كل ما يقولون لهم ، ويعتقدونه في أساس العقيدة والدين ، وهو من الكذب على اللّه ، وعلى أنبياء اللّه ، كما أخبر اللّه عنهم في مواضع كثيرة من كتابه العزيز .

وعلى مختلف العصور ، ومع كل أزمة تمرّ ، يتبدَّى جديد في طباعهم التي جبلت عليها نفوسهم ، بحب السيطرة والظلم إذا قدروا ، وتدبير الدسائس ، والأعمال الخفية إذا شعروا بالضعف .

وصراعهم الطويل مع النصارى ، ومطالبة النصارى لهم بدم المسيح ، صبّ عليهم محنًا عديدة عبر التاريخ ، وقبل ذلك عندما كان النصارى في ضعف كانت لهم جولة مع العمالة وغيرهم من الأمم ، أبانت سورة الإسراء شيئًا من ذلك .

فالنصارى عندما اشتدّ عودهم مع النهضة الأوربية ، أظهروا حنقهم على اليهود ، وكان آخر ما روي منه بعد ظهور بروتوكولات حكماء صهيون وترجمتها لعدة لغات أوربية ، بأن قتل هتلر عشرات الألوف منهم .

لكن اليهود كالنعامة التي تدسّ رأسها في التراب ، يتعامون عن السبب الحقيقي لتسلط الأمم عليهم وبغضهم إياهم ، ذلك السبب الجوهري الذي أوضحه رب العزة والجلال في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، ألم يأت الوعيد من اللّه سبحانه لهذه الفئة من البشر ، بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة بسبب معاصيهم ، وقولهم على اللّه غير الحق ، وقتلهم الأنبياء ، يقول تعالى : { فلمَّا عتوا عن مَّا نُهُوا عنه قلنا لهم كُونُوا قردةً خاسئين ۞ وإذْ تأذَّن ربُّك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسُومهم سوء العذب إنَّ

ربّك لسريعُ العقاب وإنّه لغفورٌ رحيمٌ } [الأعراف : ١٦٦، ١٦٧] .

روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم اللّه بأدنى الحيل » .

هذا العقاب الدنيوي المسلّط عليهم من اللّه ، قبل العقاب الأخروي ، جعل بينهم وبين شعوب الأرض هُوَّة ، وجعل علماءهم يُغيِّرون ما أنزل اللّه على أنبيائهم من وحي ، فيه شريعة اللّه التي بها سعادة الدنيا والآخرة ، بما تصف الألسن ، وتهوى القلوب .

يخبر اللّه عن اليهود الذين يحرفون الكلم ، ويتعمدون تغيير ما أنزل اللّه حسب أهوائهم ، وذلك في ثلاثة مواضع : في سوريتي « النساء » ، « والمائدة » ، منها قوله تعالى : { من الذين هادوا يُحرِّفون الكَلِم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين } [النساء : ٤٦] ؛ لأنهم يريدون أن تكون جميع الأمور الشرعية حسب الهوى وحسب ما تصف الألسن .

كما أخبر اللّه في كتابه الكريم عن نماذج عديدة تمثل إصرارهم وعنادهم ، وقولهم على اللّه غير الحق ، والتّعدي على الذات الإلهية بما لا يليق مع البشر ، فكيف مع اللّه جل وعلا ، وبرز هذا أكثر في كفرهم بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ، مع أنهم يعرفون الحق الذي جاء به ، كما يعرفون أبناءهم ، ثم تعاونهم مع المشركين والمنافقين ضد النبي صلى اللّه عليه وسلم ورسالته ، وعصبيتهم لأنفسهم .

وفي هذه الأيام يعملون على تقويض دعائم السلام ، الذي كانوا ينادون به ، ويتباكون عليه ، فكانوا هم السبب بأعمالهم : قتلاً في المسلمين والعرب ، وصدًّا عن الصلاة في المسجد الأقصى ، وتحريضًا من قادتهم السياسية والدينية في أمور عديدة للإضرار والنكاية بالمصلين في مساجد فلسطين ، وإصرارا بعدم الوفاء بالعهود ، أو الالتزام بالمعاهدات ، وليس بعد هذا ظلم : { ومن أظلم ممّن منَع مساجد اللّه أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها } [البقرة : ١١٤] .

مثل هذا العمل فَجَّرَ عندهم خرافة ، حول الهيكل المزعوم ، الذي يرونه رمزًا لدولتهم وعِزّهم ، أو هكذا يحلمون ، حيث جعلوا منذ وطئت أقدامهم أرض فلسطين التي سَموها (أرض الميعاد) تحريفًا عما جاء في كتبهم بأنها أرض الهلاك ، كما أخبرني من قرأ نسخًا من العهد القديم باللغة السريانية ، وللّه في ذلك حكمة ، بحرصهم على أن لا يرغبوا عن

فلسطين بديلاً لإقامة دولتهم ، ولتجمعهم فيها من شتى أقطار الأرض ، وجعلوا النجمة السداسية التي يسمونها نجمة داود رمزًا وشعارًا لهم ، مما ينبئ عن تجمعهم العقدي .

ونحن المسلمين لدينا الحقائق من سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الصحيحة ، بأن أرض فلسطين سيكون فيها هلاك اليهود وانتصار المسلمين ، أما زمن ذلك فعلمه عند اللّه جل وعلا ، ذلك أن الأحلام المسيطرة على عقول اليهود جعلت هَمَّهم في ترسيخ أقدامهم ، وترغيب بني جلدتهم ، للاستيلاء على أملاك المسلمين والعرب ، لتهيئة الجو المناسب للهجرة الجماعية ، وأنفقوا في سبيل ذلك الأموال والجهد ، لتحبيب هذا الوطن إلى يهود العالم ، وصاروا بمشورة وتوجيه علماء الدين عندهم (الحاخامات) ينبّشون عن أمور تربطهم بالأرض ، ويمنّون الناس بالوعود والأحلام .

في حرب عام ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م كان همهم إثبات الوطن ، وتحقيق وعد « بلفور » ، بإيوائهم في فلسطين ، وقد حرصوا منذ سلّمت لهم بعض الجبال المحيطة بالقدس القديمة مثل جبل الشيخ جراح ، وجبل صهيون ، وجبل هداسا ، وهي وغيرها تطل على مسجد الصخرة ، والمسجد الأقصى ، فكانوا بجهدهم حريصين على تدمير مسجد الصخرة وقبته ، وإحراق المسجد الأقصى ، وافتعال أمور لذلك .. ولكن المسلمين – بعون من اللّه – يصلخون ما دمّر اليهود وأعوانهم ، وبقيت المقدسات الإسلامية ، محفوظة بحفظ اللّه جل وعلا .

وبعد أن قامت حرب ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م وضم اليهود أرضًا ومساحات من الضفة الغربية تجددت محاولاتهم بالتدمير للمقدسات الإسلامية والمساجد ، ففي عام ١٩٦٩ م افتعلوا حريقًا في المسجد الأقصى ، وهدموا جزءًا كبيرًا من حارة المغاربة ، ودبّروا حرائق حول المسجد ، ولم تسلم من إضرارهم قبة الصخرة ولا مسجدها ، الذي كان أول من بناه عبد الملك بن مروان كما ذكر ابن كثير .

هذه الأعمال التي لم يتوانوا عنها ، مصدرها عقيدة دينية ، وضعت حلم البحث عن الهيكل ، ذلك الشعار الذي جعله موجهوهم رمزًا لبكائهم ، ووراءه هدف مبطّنٌ خبيث وهو إزالة كل ما له علاقة بالإسلام .

ولعل انسياقهم وراء هذا الوهم ، ما هو إلا جزء من العذاب والشقاوة عليهم في دنياهم ، فهم يسيرون خلف سراب لا حقيقة له . ولهم عقول لا يفقهون بها ، وعيون لا يُبصرون بها ، وآذان لا يسمعون بها .

عندما كنا صغارًا ، قرأنا كتابًا اسمه : « بدائع الزهور » ، وهو قصص وحكايات

إسرائيلية في غالبه ، والقصص تستهوي الصغار لما فيها من خيالات وأوهام ، كقصة عوج بن نوح الذي جاء في هذا الكتاب عنه أنه لطوله يأخذ السمكة من البحر بيده ، ويرفعها إلى الشمس فيشويها فيها ويأكلها ، ويشرب ماء بحيرة كاملة ، حتى تجفّ بعد شربه منها .

والصغير يعشق التعلّق بمثل هذه الخيالات كغريزة فيه ، وكان من ضمن ما حفظتُ في هذا الكتاب ، ورسخ في ذهني ، قصة الصخرة التي في بيت المقدس ، وأنها معلقة بين السماء والأرض ، وتنزل إلى الأرض كل يوم بمقدار حبة شعير ، فإذا وصلت إلى الأرض قامت القيامة !! وكنت وأترابي عندما نتذاكر ذلك ، توجل قلوبنا مخافة سقوطها فجأة ، فتقوم القيامة . ونتمنى أن نكون قريبين منها حتى نتعاون في وضع ما يمنع سقوطها على الأرض .

هكذا يكون تفكير الصغار المحدود . وهم لا شك مزرعة جيدة التربة لزراعة الأفكار ولو عن طريق الخرافة . وهذا ما يحرص عليه اليهود في أبنائهم الذين يخصصون لهم دروسًا مسائية في أي موضع من الأرض ويدرّسهم الحاخامات ليغذّوا أفكارهم بما يوصل فكرهم اليهودي وعقيدتهم ضد الإسلام .

كبرنا وفي المدرسة الثانوية عندما قرأنا قانون الجاذبية ، عدنا إلى الوراء لنقارن بين هذا القانون وبين تلك الصخرة المعلقة ، والتي لا يربطها شيء بالأرض ، ولا بالسماء ، ونزولها للأرض في نظر من صاغ الحكاية ثابت لا يزيد عن الشعيرة ، كل يوم من أول الدنيا إلى آخرها ، ولم نجد من يحل هذه المشكلة من أذهاننا التي رسخت فيها هذه الحكاية منذ الصغر مع أننا بحمد الله كمسلمين نؤمن بالمعجزات وخوارق العادات ، إذا جاءت من مصدر لا يتطرق إليه الشك .

في عام ١٣٨٦ هـ و ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٦م و ١٩٦٧م كنت في بعثة دراسية في لبنان ، وتمنيت زيارة القدس لزيارة المسجد الأقصى ، وللتحقق من موطن هذه الصخرة ، ومدى صحة تعلقها بين السماء والأرض ، وللتعرف عن المسافة الباقية .. تحسبًا للنتيجة ، وحبًّا في الاستطلاع ، وتلمسًا للحقيقة .

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى .

* * *

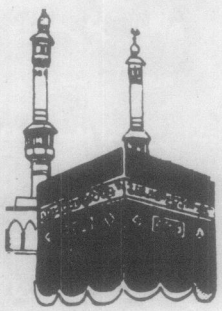

اليهود بين الحلم والحقيقة

الحلقة الأخيرة

بقلم

د/ محمد بن سعد الشويعر

مستشار مكتب سماحة مفتي السعودية

ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

فقد تحدثنا في العدد السابق عن عدم صدق اليهود في العهود، ونقضهم المواثيق، ونستكمل في هذا العدد - بعون الله - الحديث على مكرهم مظهرين بعض الحقائق والأمثلة الواقعية.

وفي إجازة رأس السنة أحببت مع زميل في الدراسة أن تكون متعة الإجازة في المسجد الأقصى؛ لأنه من المساجد الثلاثة التي تشدّ إليها الرحال، كما جاء في الحديث الصحيح، ولأن الإجازة هي الفرصة الوحيدة لمثل هذه الزيارة.

كان أول همنا بعد الصلاة في المسجد الأقصى، المرور على المسجد المقام على الصخرة، الذي يقع فوق ربوة مرتفعة عن المسجد الأقصى بما يعادل ١٥ درجة مبلطة بالحجارة، والمسافة بين المسجدين في حدود ثلاثين مترًا فقط من الناحية الشمالية والشرقية.

وجدنا مسجد الصخرة صغيرًا لا يتسع لأكثر من ١٢٠ مصليًا، تتوسط الصخرة التي تحتها مفارق صغيرة يقصدها المصلون، ولا تتسع هذه المفارق لأكثر من ثلاثة أشخاص يصلون فيها، ولذا فإن الناس رجالاً ونساء ارتالاً للصلاة تحت هذه الصخرة، وهي كأي صخرة تتصل بأصل جبل.

يقول ديورانت في موسوعته "قصة الحضارة"، وكذا تقول بعض المعاجم: إن الصخرة كانت مقدسة عند اليهود، ومن نكايتهم بالنصارى، وشدة عداوتهم لعيسى عليه السلام، فإنهم جعلوا قمائمهم على قبر المصلوب، وأمروا نساءهم بأن ترمي عليه وساخات أطفالهم وبيوتهم، وخرق الحيض، ولما قامت هيلانة، وولدها الملك قسطنطين - قبل ولادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بحوالي ثلاثة قرون - بإخراج الصليب وتطييبه حسب الرؤيا التي فسرتها لها الكاهنة، وأن عزّ دولة ولدها لا تتم إلا برفع الصليب، أمرت بالقبر فشيّد، وبنت عليه الكنيسة العظيمة التي عرفت باسم كنيسة القمامة.. باعتبار مكانها، وبعضهم سماها كنيسة القيامة، ثم قامت بدعة الصليب، وكرد فعل لعمل اليهود، ولما بينهما من عداوة، أمرت بأن تعمل نساء النصارى على الصخرة نفس عمل نساء اليهود على قبر المصلوب، فكانت مغطّاة بالقمائم وليس لليهود سلطة بإزالتها.

حتى جاء عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في فتح الشام، وبعد استلام مفاتيح بيت المقدس من كبير القساوسة النصارى بالقدس، فصار عمر، رضي الله عنه، يزيل

القاذورات والقمائم عن الصخرة ويقول : قاتلهم الله ! ما هكذا يفعل بمسرى أنبياء الله ؛ فطهرها رضي الله عنه ، وهذا برهان على سماحة الإسلام ومعاملته أهل الكتاب أحسن معاملة . اهـ .

كما عمل مع النصارى أسلوبًا مماثلاً ، جعل كثيرًا من النصارى يدخلون الإسلام عن قناعة ، فقد لبّى دعوة كبير القساوسة للطعام وأكل عنده ، ثم لمّا طلب منه أن يصلي في هذه الكنيسة قال عمر : أخشى أن يغلبكم عليها المسلمون ، ولكن أُصَلّي هنا ... فصلى قريبًا من بابها ، وقد أصبح مصلاه - كما توقع عمر - مسجدًا ، يعرف حتى الآن باسم مسجد عمر ، وقد ذكر كثير من المؤرخين العرب منهم الطبري وابن كثير والبلاذري أخبار ذلك .

حكايات كثيرة حول مسيرة الإسلام ، ورضى أصحاب الديانات كلها عن الإدارة الإسلامية في ظل عدالة هذا الدين ونظرته الشمولية ، شوقتنا بعد الحديث مع شخصيات إسلامية في القدس ذلك الوقت لطرح سؤال حول الصخرة ، وما وجدنا واقعًا ملموسًا مخالفته لما في " بدائع الزهور " ، وما تفسيرهم لذلك .

قال لنا أحدهم ، وكان شيخًا مسلمًا وقورًا معممًا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو معلوم لديكم ، قد أخبرنا بأن الأحاديث الإسرائيلية لا تصدق ولا تكذب ، فلا تصدق مخافة أن تكون مما كذبوه أو حرفوه ، ولا تكذّب لئلا تكون مما جاء عن الله ، أو عن أنبيائه ، ومع هذا ، والله أعلم أتوقع - والكلام لمحدثنا - أن يأتي شيء لا أدري عن كنهه ، يسقط هذه الصخرة ويدمّرها ، إما بهدم أو بسلاح فتاك ، أو بكارثة يسوقها الله كالزلازل والصواعق أو غير ذلك ، بدليل ما لمسناه من حرص اليهود على هدم مسجد الصخرة والمسجد الأقصى ، وقد كان كلامه به إقناع في حالة محسوسة .

رأينا بجوار المسجد الأقصى من الناحية الشرقية الشمالية سردابًا طويلاً ، وعند الباب شيخ وقور ، أرجع نسبه عندما سألناه إلى الخزرج من الأنصار ، بعد أن نفحناه بما تيسر ، فهبط معنا لهذا السرداب كدليل يخبرنا بما وراء ذلك من حكايات وأساطير ، وكان مما قاله : إن هذا السرداب هو مربط خيل سليمان عليه السلام ، وأن اليهود يعتبرونه الوحيد الذي نصر اليهود من الظلم وأقام دولتهم ، وأنهم باقون ليتبركوا بالتراب الذي داسته أرجل خيل سليمان - لأن هذا على حد اعتقادهم - كان في سبيل دولتهم ، وغاب عنهم أن ملك سليمان ملك إسلامي وليس يهوديًا ، ولذا فإنهم بعد أن ينصرفوا من حائط المبكى في الاتجاه المعاكس بعد مسجد الصخرة ، يدخلون هذا السرداب ويربطون أنفسهم ، أو يتعلقون بالحلق المثبتة في عرض الحائط ، لأن الخيل تربط فيها ، وهذا جزء من طقوسهم الدينية ، وعقائدهم التعبُّدية .

كانت هذه الحكايات مُسَكّنة وشاغلة لما لدينا من

تساؤلات حول الصخرة ، وما نسج حولها من حكايات .

لكن بعد أن توسعت إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ م ، واستحوذت على المسجد الأقصى ، وظهرت من تصرفات الأفراد اليهود النوايا المبيتة ، حول الحرص على هدم المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة ، ومسجد الخليل وغيرها ، بأساليب متنوعة ، بدأ التساؤل من جديد حول خرافة اليهود المنسوجة حول الصخرة ونزولها شعرة شعرة ، حتى تسقط على الأرض ، فتقوم الساعة ، ثم كيف يعلم اليهود هذا وهو من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا اللّه ، كما ذكر اللّه في آخر سورة « لقمان » .

هذا يؤكد أن أكاذيبهم تجعلهم يصنعون ما يشتهون ، ويمهدون لما يستهدفون ، كما في بروتوكولات حكماء صهيون ، وأسرار الحكومة الخفية ، مما يبرهن على أن معرفتهم بدين الإسلام وعداوتهم له ولأهله ، يجعلهم تتفتق حيلهم ، عن أحلام ينسجونها ، لتصبح في معهودهم ومتى واتتهم الفرصة حقيقة ، تهدف لما في أذهانهم من مخططات رسموها ، ونوايا بيتوها .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ، مع أنه معروف قدم عداوتهم للنصارى ، وبغض النصارى لهم كيف يحرصون على الكيد للمسلمين من محاولة لهدم المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة ، دون أن يمسوا الكنائس الكبيرة والكثيرة في القدس بأذى ؟؟!!

إنه أمر يدعو للبحث والإستقصاء عن تعليل مقنع ، ولعل من يعرف تاريخ أمثال القسّ صموئيل زويمر المتوفى عام ١٩٣٥ م في بريطانيا ، والذي تعتبره الكنائس أكبر مُبَشّر خدم الإرساليات التبشيرية حتى سموه المعلّم ، فإنه قد وجدت وصيته بعد وفاته بأن يدفن على طريقة اليهود ! مما يدل على أن له نظائر يخدمون اليهودية وراء التبشير بالنصرانية لهدم الإسلام ، من باب أنا وابن عمي على البعيد ، وفي نظرهم البعيد هو الإسلام ؛ لأن الكفر ملّة واحدة .

لكن لمّا جاءت أخبار الحفريات تحت المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة في نفق يُدْخَل إليه من عند حائط المبكى ، لينفذ وراء المسجد الأقصى ، ثم جاء خبر عن الإبانة عن نفق آخر اكتشفه القائد الإنجليزي « اللنبي » ، الذي ركل قبر صلاح الدين قائلاً : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين ، بدأ البحث عن الهدف وراء ذلك ، وأن فكرتهم لم تكن وليدة يوم وليلة ، ولكنها فُضحت لمّا بانت ، فكان من التعليلات :

أن الهدف عن البحث عن الهيكل الذي يعتقدون بأن المسجد الأقصى بني على موضعه ، وأنهم ما زالوا ينحتون في الصخر ، ولم يجدوا هذا الأمل المنشود . ومع هذا فيقال عنهم : أنهم غير آيسين ، أنهم سيجدونه في تبرير لاستمرارهم .

وكان هذا الهيكل موجودًا في هذا الموضع قبل خلق الجبل ، ثم هل هذا الهيكل هو كرسي سليمان ؟ أو خاتمه الذي روي بأن ماردًا أخذه وسليمان في

الحمام، فسلبه ملكه، امتحانًا من اللّه، ثم عاد إليه عليه السلام ؟؟!!

ويرد على زعمهم هذا بأن سليمان عليه السلام، هو الذي بنى المسجد الأقصى، ولا يُعقل أن يبنيه سليمان على الهيكل الذي هو رمز ملكه وهو حي !! إذًا لسلب منه وهو حي، ولم يذكر هذا لا في كتب التفسير ولا في الأحاديث الإسرائيلية.

إن الهدف تدمير المسجدين: الأقصى، والصخرة، لأن النفق يمر من تحتهما. وفي هذا امتحان للمسلمين. فإن تحركوا وإلا تمادوا في عملهم ليتوسعوا يمينًا وشمالاً، وليتسع مجال الهدم. وبهدم مسجد الصخرة تسقط الصخرة والجبل الصغير المتعلقة به. أما ما يقال عن تقديس اليهود للصخرة والمسجد الأقصى فهذا غير صحيح ويكذب ذلك الواقع، ويكون سقوط الصخرة بغير ما يعتقده أعداء اللّه اليهود. لأنهم يحرفون الكلم ويبدلون ما جاءهم عن اللّه. وعلى ألسنة أنبيائه بما يحلمون فيه العز والتمكين لهم، ألم يقولوا: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ [آل عمران: ٧٥]؟ لأن عداوتهم القديمة للإسلام لم تزدد إلا كيدًا ورغبة في هدم الإسلام من القلوب.

وقد يكون من أهدافهم حسب الأسلحة الحديثة - صيد عصفورين بحجر واحد - وذلك بتفجير هذا الممر في وقت يتجمع فيه المسلمون لصلاة الجمعة، أو العيد، ليقتلوا أكبر قدر من المسلمين، وليهدموا المسجدين برمية واحدة. وهذا ليس ببعيد على أخلاق اليهود، ونقضهم العهود. لأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق. ونموذج ذلك ما حصل في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في المدينة وخيبر. حتى سلّط اللّه عليهم رسوله، وأعانه اللّه على استئصال شأفتهم، وقلع جذورهم من جزيرة العرب. حيث أكمل ذلك عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه. بإجلائهم عن جزيرة العرب، لما تحقق له صحة الحديث: "لا يجتمع في بلاد العرب دينان"، ويقرب هذا ما حصل في شهر رمضان قبل عامين، عندما جاء واحد منهم مسلحًا ليحصد المسلمين وهم في صلاة الفجر بسلاحه. والمثل يقول: خذوا أخبار القوم من سفهائهم.

إن من يقرأ كتبهم السرية، وما فيها من نوايا يغذيها اليهود ويحرصون عليها، وهي جزء من عقيدتهم مثل: عجن فطيرة أعيادهم بدم أحد علماء الإسلام، أو رهبان النصارى، ومثل تحريضهم على قتل كل قسيس أو عالم بطرق خفية باعتبار ذلك جزء من مسببات الغفران، وغير هذا من أمور كثيرة، ليدرك عداوة اليهود لكل من يخالفهم: نصارى أو مسلمين، لكن المسلمين هم الهدف الأول، وأنهم إذا قدروا تجاوزوا الحدّ مع مقابلتهم تسامح الإسلام معهم وحمايتهم في ظل دولته بالنكران والجحود، لأنهم لا أيمان لهم ولا وفاء، كما أخبر اللّه عنهم في كتابه العزيز.

نفحات من الهجرة

الأحداث التاريخية ، ذات أثر في حياة الفرد ، وسيرة الجماعة والأمم ، وكل أثر مهم لا بد أن ترتسم أحداثه في الأفئدة ، وتستقرئ الأجيال منها عبرًا وعظات ، فالأيام عندما تطوى ، والسنين عندما تمرّ ، فإنما هي كشريط مسموع أو مقروء يتلهف لما فيه ، ويتطلّع لنهاية الإنسان ، فهو إن استمر معه حتى نهايته ، التي تتم بانطواء البكرة ، وانتهائها حوى هذا الشريط من مشاهد ومعلومات ، يعلق بذهن المتابع أهمها إليه ، ويختفي ما كانت أهميته أقل ، وبانتهاء هذا الشريط ومعرفة ما حوى تتطلع نفس الإنسان إلى شريط آخر بحثًا عما فيه ، ورغبة في تجديد المعلومات لكي يصحح ما يريد ترسيخه من علوم ومعارف .

هذا الشريط ما هو إلا مثال لانطواء السنين ، وتجدد الأحداث في الأيام والليالي ، ويتذكر ذلك الإنسان عندما يستشرف لعام جديد ، بعد انتهاء أعمال الحج في كل سنة ، وعودة ضيوف الرحمن لبلادهم ، حيث يلي ذلك شهر اللّه المحرم ، الذي هو بداية العام الهجري ، وبحلول أول يوم فيه ، تنطوي صفحات عام مضى أصبحت أحداثه ذكريات لدى بعض النفوس ، منها الحلو ومنها المر ، وبه أيضًا تنشر صفحات العام الجديد ، الذي يبدأه الإنسان متطلعًا لما يكون فيه من أمور ، وكل عام وما يليه ما هو إلا جزء من شريط العمر الزمني للإنسان ، ينطوي منه ما مضى ويأخذ الدور ما بقي ، والناس بما فيه ما بين مستقل ومستكثر ، سواء كان خيرًا أو شرًّا .

والتاريخ الذي هو راصد لما مرّ فيه من أحداث ، بحسب قدرة المؤرخ وسعة اطلاعه ، عندما يقلب الإنسان صفحاته ، فإنه يجد فيه الأمور العجيبة والغريبة ، وإذا استلهمنا من قبساته نفحات من مَطْلع كل عام هجري ، فإننا نجد أمورًا غيرت وجه الأرض ، وأحداثًا رفع اللّه بها أقوامًا ، وخفض آخرين ، فنبيُّ اللّه موسى ، عليه الصلاة والسلام ، كانت له مع فرعون مصر وقومه أحداث ووقائع ، حيث نجى اللّه موسى ، عليه السلام ، وقومه في يوم عاشوراء ، وهو اليوم

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر
مستشار مكتب سماحة مفتي السعودية
ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية

العاشر من شهر محرم ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق في ذلك اليوم ، ولذا فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، وجد أهل الكتاب يصومون ذلك اليوم ، ولما سألهم عنه ، قالوا : هذا يوم نجى اللّه فيه موسى وقومه ، وأهلك فرعون ومن معه ، فصامه موسى ، عليه السلام ، شكرًا للّه ، فنحن نصومه ، فقال لهم رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم : " نحن أحق بموسى منكم " . فصامه ، وأمر بصيامه ، ثم أمر بأن يُصام يوم قبله ، أو يوم بعده مخالفة لليهود ، فكان من نفحات شهر المحرم فضيلة صيام شهر محرم ؛ لأنه من الأشهر الحرم ، وفضل صيام يوم العاشر من محرم مع يوم قبله أو يوم بعده .

فإذا كان اليهود مع ضلالهم ، والمشركون في الجاهلية مع بُعدهم عن الحق ، قد رسخ في أذهانهم تعظيم شهر محرم الذي به تبدأ السنة الهجرية ، فإن المسلم المتمعن في نصوص شرع اللّه ، والمستقيم على سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، يدرك ما لهذا الشهر من مكانة وفق النصوص الشرعية ، فقد روى الترمذي في " سننه " عن علي بن أبي طالب ، رضى اللّه عنه ، قال : سأل رجل رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، وأنا قاعد عنده فقال : يا رسول اللّه ، أي شهر تأمرني أن أصوم بعد رمضان ؟ قال : " إن كنت صائمًا بعد شهر رمضان ، فصم المحرم ، فإنه شهر اللّه ، فيه يوم تاب فيه على قوم ، ويتوب فيه على قوم آخرين " .

ومن نصر اللّه الذي حققه سبحانه لنبيه موسى ، عليه السلام ، في بداية العام القمري ، وهو شهر محرم ، أهلك اللّه القوم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون ۞ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ [القصص : ٣٩ ، ٤٠] ، فمنّ اللّه بهذا النصر على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين ، يقول سبحانه : ﴿ ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان

وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص: ٦].

وكان في مطلع العام الهجري الأول أن جعل الله لنبيّه محمد، صلى الله عليه وسلم، والفئة المؤمنة معه فرجًا، عندما استحكم تضييق المشركين على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعدما اشتد أذاهم لأصحابه، أذن الله لنبيه بالهجرة، حيث بدأ أصحابه في الذهاب من مكة فرادى وجماعات، إلى مدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقاعدة الإسلام الجديدة، حتى إن بيوتًا خلت من أهلها، واستقبلهم الأنصار بالترحاب، وشاركوهم السكن، وشاطروهم المال، وفتحوا لهم مع الأبواب الصدور، بالمحبة والتآخي والتصافي والمودة.

وقد اتخذ المسلمون بداية السنة الهجرية، التي رصد بها التاريخ من محرم، وسميت من أيام عمر، رضي الله عنه، بالسنة الهجرية؛ لأن أبرز حدث يمكن جعله مبدءًا للهجرة، ولتأريخ الأحداث كان بقوة الإسلام وظهوره، وهذا يوافق ما اصطلحت عليه العرب من جعل شهر محرم بداية للسنة القمرية عندهم، ولما شاور عمر بأبرز حدث يمكن جعله بداية للتاريخ - لأن الأمم التي بدأت ديارهم تفتتح أمام جيوش الإسلام لها تاريخ ووقت يؤرخون به - فتشاور مع كبار الصحابة، واستقر الرأي بأن أبرز حدث يمكن اختياره تاريخيًّا، وتؤرخ به الوقائع والأحداث والرسائل، هو هجرة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى المدينة، التي أصبحت قاعدة للدولة الإسلامية، ومرتكزًا لتجمع المسلمين ضد المشركين، فبدأ الجهاد الذي نصر الله به الإسلام، وبدأت انجابهة ضد من يناوئ دين الله، ومن يقف في وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتبليغ أمر ربه، فصمدت الجموع المسلمة بقيادة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومعه الصفوة الصادقة في دينها، في وجه ثلاث قوى في المدينة وخارجها؛ قوة المشركين من أهل مكة ومن يشايعهم، وقوة المنافقين في المدينة، المرجفين والمثبطين للهمم، وقوة أهل الكتاب الذين يلبسون على الناس، ومع هؤلاء جميعًا إبليس وجنوده، ولكن قوة هذا الدين الذي جاء من عند الله أقوى من كل ذلك.

ولكي يبرز دور الهجرة في إعلاء كلمة الله، وظهور الحق على الباطل، فقد بان من السيرة النبوية، جوانب كثيرة مما لقي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه في هذا السبيل، من عنت ومشقة، صبَّها مشركو مكة ومن شايعهم؛ إيذاء ومحاولة صدّ، فكانت البداية أن أذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فكان في طليعة الدفعة الأولى مصعب بن عمير، الذي ترك نعيم الحياة ورغد العيش، ليذهب مع رجال العقبة الأولى من الأنصار بأمر من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وقد صلّى أسعد بن زرارة الذي استضاف مصعب بالمدينة أول جمعة في الإسلام بأربعين رجلاً، فكان هذا من نفحات الهجرة، ونصرًا ارتفعت به مكانة الإسلام في المدينة، وفتحًا للفئة المؤمنة بربها، حيث بدأ

الإسلام يتنامى وتتسع دائرته ، حتى دخل غالبية بيوت الأنصار ؛ لأن النفوس المخلصة الصادقة بذلت كل ما تستطيع ، فهيأ اللّه لعملها قبولاً ، وقلوبًا متفتحة ، فبرزت النتيجة عاجلاً .

ومن أوائل من ذهب للمدينة مهاجرًا ، قبل مقدم رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، أبو سلمة ، الذي كانت حكاية هجرته وما حصل لأم سلمة ، رضي اللّه عنها ، واقعة مؤلمة ، وندع ابن إسحاق يرويها قائلاً : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة قالت أم سلمة : رَحّل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم ، قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه . قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة . فقالوا : لا واللّه لا نترك ابننا عندها ، إذْ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابنها سلمة بينهم ، حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، ففُرّق بيني وبين زوجي وبين ابني ، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبًا منها ، حتى مرّ بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها ، وبين ولدها ، فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت . قالت : وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني . فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، قالت : وما معي أحد من خلق اللّه ، فقلت : أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم ، لقيت عثمان بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ فقلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أوَ ما معك أحد ؟ فقلت : لا واللّه ، إلا اللّه وبُنَيّ هذا ؟ قال : واللّه ما لك من مترك ، فأخذ بخطام بعيري ، فانطلق معي يهوي بي ، فواللّه ما صحبت رجلاً من العرب قط ، أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني إلى شجرة ، قيد بعيري فيها وحطّ عنه ، ثم تنحّى عني إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرّواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحله ثم يتأخر عني . وقال : اركبي . فإذا ركبت واستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك في هذه القرية – وكان أبو طلحة نازلاً – فادْخُليها على بركة اللّه ، ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

فكانت تقول : واللّه ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل سلمة ، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة ؛ وهذه الحكاية التي هي عبرة لكل مسلم وما يجب

أن يصبر عليه من الأذى في سبيل دينه بإخلاص مع اللّه ، وصدق وثبات ، هي نفحة من نفحات الهجرة النبوية التي يطل علينا هلالها .

وهذا صهيب بن سنان الرومي ، رضي اللّه عنه ، حين أراد الهجرة قال له كفار مكة : أتيتنا صعلوكًا حقيرًا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، واللّه لا يكون ذلك . فقال لهم : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي ؟ قالوا : نعم . قال : فإني قد جعلت لكم مالي . فبلغ ذلك رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب .. » ، وما ذلك إلا أن صهيبًا أرخص ماله في سبيل سلامة دينه ، وتَرْكِه يسافر للمدينة مهاجرًا .

وعمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه ، لما أراد الهجرة تقلّد سيفه ، وطاف بالبيت ، ثم مرّ على مجامع قريش ، وقال لهم مجمعًا مجمعًا : إنني مهاجر إلى المدينة ، ومن أراد منكم أن تثكله أمه ، فليتبعني خلف الوادي . فلم يتبعه أحد ، خوفًا من سطوته وقوته ؛ لأنه إذا قال فعل ، فكانت فرصة لبعض المستضعفين من المسلمين أن يلحقوا به ، ليهاجروا في كنفه وتحت حمايته .

وكانت من نفحات الهجرة العديدة ، ودورها في تغيير بنية المجتمع المدني بالترابط والألفة ، ما حرص عليه رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، من تقريب وتآخٍ ، بين الأنصار والمهاجرين ، حيث نزل كل مهاجر على أخيه من الأنصار ، فصارت أخوة الإسلام أمكن من رابطة النسب ، حتى بلغ الأمر بالأنصار إلى أن يتقاسم كل منهم ماله مع أخيه المهاجر ، ويخيّره بين زوجاته ، ليطلّق له ما يريد ، حتى يتزوجها ، إنه فداء ما بعده فداء ، وإيثار لا يعرف له التاريخ مثيلاً .

أما أكبر الحوادث وأعظمها أثرًا فما كان من قريش ، الذين حركهم الحقد الدفين ، لينالوا من رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، بعدما أحزنهم ما صارت له من شيعة وأصحاب من غيرهم ، وبغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، فعرفوا أنهم قد نزلوا دارًا ، وأصابوا منهم منعة ، فخافوا خروج رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، وعلموا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ، التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها ؛ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، ولما غدوا إلى الدار في موعدهم ، اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه كسْاء غليظ ، فاستأذن في الدخول معهم ، فأذنوا له ، فتشاوروا في أمره ، فقال بعضهم : احبسوه في الحديد ، وقال بعضهم : نخرجه من بين ظهرانينا ، فننفيه عن بلادنا ، فقال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًّا جليلاً نسيبًا وسيطًا فتيًّا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ويضيع دمه في القبائل ، قال إبليس : هذا هو الرأي الأصوب .

وأجمعوا أمرهم على ذلك ، ورصدوا لرسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، في الليلة الموعودة ، فاستخلف النبي ، صلى اللّه عليه وسلم ، عليًّا ليكون في فراشه ، وجاء صلى اللّه

عليه وسلم ، لهذا الجمع فذرّ على رءوسهم التراب ، وهو يتلو : ﴿ يس ۞ والقُرآن الحكيم ﴾ الآيات [يس : ١، ٢] ، وخرج رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، فكانت قبسات الهجرة قد عمت كل بيت ، وتفيأ المسلمون ظلالها في رحلة الخير التي جعلها اللّه نصرًا للإسلام ، وقوة للمسلمين ، وقد أذل اللّه المشركين ، وقتل صناديدهم في بدر وغيرها من المشاهد . وارتفعت راية الإسلام عالية ، وصوت الإسلام مدويًا في الآفاق .

۞ تجارة الرسول صلى اللّه عليه وسلم للشام :

ذكر ابن الجوزي في كتابه " الوفاء بأحوال المصطفى " (١/ ٢٣٥، ٢٣٦) في خبر خروج رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، إلى الشام في تجارة لخديجة : عن نفيسة بنت منبه قالت : لما بلغ رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، خمسًا وعشرين سنة قال له أبو طالب : أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام . وخديجة بنت خويلد ، تبعث رجالاً من قومك في عيراتها ، فلو جئتها ، فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك .

وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، فأرسلت إليه في ذلك ، وقالت : أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك ، فقال أبو طالب : هذا رزق ساقه اللّه إليك ، فخرج مع غلامها ميسرة ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير ، حتى قدموا بصرى من أرض الشام ، فنزل في ظل شجرة ، فقال نسطورا الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبي ، ثم قال لميسرة : أفي عينيه حمرة لا تفارقه ؟ قال : نعم ، قال : هذا نبي وهو آخر الأنبياء ، ثم باع سلعته ، فوقع بينه وبين رجل تلاح ، فقال له : احلف باللات والعزى ، فقال رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم : " ما حلفت بهما قط ، وإني لأمُرُّ بهما ، فلا التفت إليهما " . فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة : هذا واللّه نبي ، تجده أحبارنا منعوتًا في كتابهم .

وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملَكين يظلان رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، من الشمس ، فوعى ذلك كله ميسرة ، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون ، ودخل مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في عُلّيَة لها ، فرأت رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، وهو على بعيره ، وملكان يظلانه من الشمس ، فأرته نساءها فعجبن لذلك .

ودخل عليها رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، فخبرها بما ربحوا في وجوههم ، فسرّت بذلك . فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام ، وأخبرها بما قال الراهب نسطورا وبما قال الآخر الذي خالفه في البيع .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

لقاء التوحيد بمكة المكرمة :

مع فضيلة د / محمد بن سعد الشويعر

مستشار مكتب سماحة مفتي المملكة العربية السعودية

ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية

- **اليهود هم الأقدر إعلامًا ، حيث يعتمد إعلامهم على الكذب وتجسيم الأمور .**
- **أعداء الإسلام يحاولون التنفير وتشويه الصورة ، وعلى المسلمين أن ينشروا معتقدهم ، وأن يتميزوا بمنهج صادق وواضح .**
- **الكثير من المتعالمين يُجَهِّلون غيرهم ، ويفسرون الأمور بما يتفق مع أهوائهم في أمور الدين .**
- **أمر الردة ليس أمرًا هينًا ، تلوكه الألسنة ، فيجب ألا يطلق جزافًا .**

أجرى الحوار / جمال سعد حاتم

الإعلام سلاح ذو حدين

•• الإعلام في هذا العصر له دور رئيسي في تشكل آراء الناس ، ويدخل أيضًا في صياغة معتقداتهم ، فكيف يقوم الإعلام بنشر المعتقد الصحيح ، خصوصًا وأنه يلاحظ عزوف كثير من العلماء من أهل السنة والجماعة وبعض طلبة العلم عن المشاركة الفعالة في الوسائل الإعلامية ، وأتيحت لذلك المجالات أمام أصحاب العقائد والمناهج الأخرى ؟

● ج : الإعلام سلاح ذو حدّين ، وفي بلاد الغرب يلاحظ أن اليهود هم الأقدر إعلامًا ، حيث يعتمد إعلامهم

في مكة المكرمة . حيث تصغي الآذان لكلمات العلماء وتوجيهاتهم . وفي مكتب سماحة الشيخ / عبد العزيز بن باز (مفتي عام المملكة السعودية) كان لنا هذا اللقاء مع فضيلة الدكتور / محمد بن سعد الشويعر (مستشار سماحة المفتي ، ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية) ، لبحثنا عن الكثير مما يدور في أذهاننا ، عن الإعلام وخطورته وسيطرة اليهود على أجهزة الإعلام ، عن ضرورة وجود إعلام إسلامي قوي ، كي لا نترك الساحة لليهود ، وعن معتقد أهل السنة والجماعة وخاصة مسألة الولاء والبراء والتكفير والسمع والطاعة ، وعن طلبة العلم ، والتقليد الأعمى عند الكثير من المسلمين لكل ما هو غربي ، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن متابعة أهل الكتاب ومشابهة الكفار ، مما يبرهن على أن للمسلمين تميزاً عن غيرهم ، ووجه فضيلته النصيحة للشباب وطلبة العلم بالحرص على كتاب الله ، عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة ، دراسة وتفهماً ، وتطبيقاً ، وعملاً ، كما حذر فضيلته بعض طلبة العلم الذين يتساهلون في إطلاق لفظ الردة على المسلم ، قائلاً : إن أمر الردة ليس أمراً هيناً حتى تلوكه الألسنة فيجب ألا يطلق جزافاً ، وإن هذا الأمر قد وضعت له ضوابط مستمدة من النصوص الشرعية .

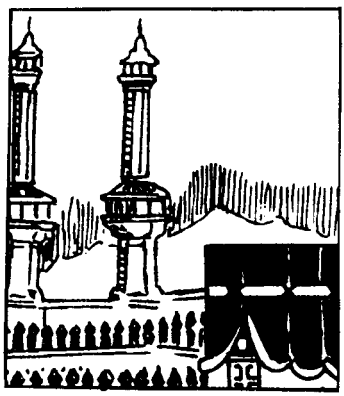

على الكذب وتجسيم الأمور ، ومعلوم أن من سبق لأمر حظي بالاهتمام ، ولكن كما يقال : البقاء للأصلح ، والمسلمون لكي ينشروا معتقدهم يجب أن يتميزوا بمنهج واضح وثابت ؛ الصدق ، والوضوح .. متخذين ذلك من منهج دينهم ، فهو صادق وواضح ، ولذا سمى اللّه الكاذبين منافقين ، وجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من علامات النفاق ؛ إذا حدّث كذب ، فالإعلام المرتكز على الكذب سينكشف ويملّه

الناس ، ومثلما سار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده على منهج إعلامي صادق ، ودعوة مخلصة ، فكذلك نحن في هذا الزمان ، ومن يأتي بعدنا يجب أن نترسم خطاهم ، وننهج نهجهم ، ونستمد من بُعْد نظرهم في الأمور التي تعرض ، ولسنا بأفهم للدين منهم ، ولا بأقدر في تدبير الأمور ، وإن عاب هذا المنهج من بني جلدتنا ويتكلم بلساننا من عاب ، لكن ردنا عليه يبرز من هذا القول الكريم : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن اللّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ | النساء : ٧٩ | ، وهي أمانة على العلماء والعارفين أن تراعى ، وقاعدة يجب أن تؤصل ، رغم أن الأعداء سيحاولون التنفير وتشويه الصورة والتفرقة .

خطورة مخالفة الكتاب والسنة

●● يلاحظ أنه من يقوم بتبيين وتوضيح معتقد أهل السنة والجماعة في مسألة الولاء والبراء والتكفير والسمع والطاعة، يعاني من مواقف بعض العاملين باسم الإسلام، بل قد يتعرض لظلمهم، فما توجيه فضيلتكم في ذلك ؟

● ج : المؤسف أن كثيرًا من المتعالمين يجهّلون غيرهم، ويفسرون الأمور بما يتفق مع أهوائهم في هذه الأمور، والأمر ليس بالهين، وكأن هؤلاء المتعالمين جاءوا بشيء جديد لم يعرفه سلف هذه الأمة في عصورها الأولى المفضلة، ذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أخبر بأن من كفّر مسلمًا فقد كفر، وبأن من قال لآخر : يا كافر، فقد باء بها أحدهما.

والسمع والطاعة تكررت كثيرًا في كتاب اللّه، وأوضحتها سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بما لا يحتاج إلى مزيد أو اجتهاد، فمن حاد عن هذا المفهوم بشيء جديد فقد جانب الصواب وأضلّ غيره، ونخشى على كثير ممن ينتهجون منهجًا في هذه الأمور يخالف ما جاء في مصدري التشريع، وما فنده علماء الإسلام الموثوق بهم، أن يكون ممن حذّر منهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من علماء آخر الزمان.

نصيحة للشباب وطلبة العلم

●● ما هي نصيحتكم للشباب، وخاصة شباب الصحوة الإسلامية وطلبة العلم ؟

● ج : أما النصيحة لنفسي أولاً وللشباب وطلبة العلم؛ فهي الحرص على كتاب اللّه، عز وجل، وسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الصحيحة، دراسة وتفهمًا، وتطبيقًا وعملاً، ولقد طلب الصحابة من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الوصية في حجة الوداع، فقال لهم : ((تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب اللّه، وسنتي)).

وكتاب اللّه ليس المقصود تزيين البيوت بلوحاته، أو اختيار النسخ الثمينة النفيسة مظهرًا، ولكن المقصود تعظيمه في القلوب، وفهم دلالاته، وتطبيق محتوياته والتعبد به، حتى لا نقع في هذا العقاب : ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠]، ذلك أن كتاب اللّه شامل لأمور؛ الدين والدنيا، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، من تمسك به هُدي وعصم، ومن ابتعد عنه ضل وغوى.

خطورة التساهل في أمر الردة

●● يلاحظ على بعض طلبة العلم التساهل في إطلاق لفظ الردة على المسلم ، بل قد يطالب هذا البعض بانتداب من يرون لإقامة حدّ الردة في المحكوم بردته عندهم ، إذا لم يقم به السلطان ؟

● ج : إن أمر الردة ليس أمرًا هينًا ، تلوكه الألسنة ، فيجب ألا يطلق جزافًا ، وكتب الفقه عند المسلمين اهتمت بهذا الأمر ، ووضعت له ضوابط مستمدة من النصوص الشرعية ، وقد ألّف بعض العلماء كتبًا مستقاة من ذلك المنهج في أحكام الردة ، وعلى كل مسلم أن يحفظ نفسه عن الزلل ، وألاّ يقول بغير علم ، وأن يراقب اللّه في السر والعلن ، ويترك الأمر لمن خولهم اللّه ذلك ، بما أخذ عليهم من ميثاق التبليغ بعد القدرة العلمية .

وليس للناس أن يقوموا بتنفيذ حدّ الردة من أنفسهم ، إذْ ذلك للسلطان ، والماورديّ ، رحمه اللّه ، في كتابه ((الأحكام السلطانية)) ، وابن القيم في ((السياسة الشرعية)) ، وغيرهما لا يرون أن يتجرأ على تنفيذ الأحكام غير السلطان الذي حمّله اللّه هذه الأمانة ، حتى لا تنتشر الفوضى في الأمة وتضيع الدماء بالأهواء ، والسلطان لا يقيم هذا الحدّ إلا بعد صدور حكم شرعي بثبوت الردة ، وعدم التوبة .

تميز المسلمين عن غيرهم

●● ولع المسلمون بتقليد كل ما هو غربي ، ونسوا أنهم أصحاب رسالة ، فضلاً عن كونهم أمة يجب أن تكون متميزة ، فما أهمية هذا القول بالتميز في اتخاذ المسلمين بوسائل النهوض من كبوتهم ؟

● ج : نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن متابعة أهل الكتاب ومشابهة الكفار ، مما يبرهن على أن للمسلمين تميزًا عن غيرهم ؛ ولذا فقد مدح اللّه أمة الإسلام بأنهم أمة وسط بين الأمم ، فلا غلوّ مع الجهل كما هي حال النصارى الذين وصفهم اللّه في سورة ((الفاتحة)) بالضلال ، وفي سورة ((الحديد)) بالرهبانية التي ابتدعوها ولم تُكتب عليهم ، فما رعوها حق رعايتها .

ولا معاندة مع العلم كما هي حال اليهود الذين وصفهم اللّه في سورة ((الفاتحة)) بالمغضوب عليهم ؛ لأنّهم عصوا اللّه عن علم ومعرفة ، وفي أماكن أخرى من كتاب اللّه ، بأنهم يعرفون الحق الذي جاء به محمد صلى اللّه عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، ولكن عاندوا وكابروا ، كما قتلوا أنبياء اللّه وحرّفوا الكلم

عن مواضعه حسبما تصف أهواؤهم ، واشتروا بعهد اللّه ثمنًا قليلاً ، وتحايلوا على شرع اللّه ، وأمة الإسلام التي أخبر صلى اللّه عليه وسلم عن فضلها وخصائصها بين الأمم يجب أن يرعوا هذا الأمر ويهتموا به ؛ لأن سعادتهم وعزهم فيه ، كما قال عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه : نحن قوم أعزنا اللّه بالإسلام ، فمتى ابتغينا العزّ بغيره أذلنا اللّه .

وحسن الاتباع ، مع الاهتمام بالتطبيق لشرائع اللّه ، هي من الخصال المميزة ، ويجب أن تنهانا صلاتنا عن الفحشاء والمنكر ، وأن نتقي اللّه حق تقاته ، بمراقبة النفس أولاً ومحاسبتها ، لأن تعاليم الإسلام كلها وشرائعه واضحة جليّة ، والعلماء عليهم دور الإبانة وعدم الكتمان ، ومن لا يعلم عليه أن يسأل أهل الذكر وهم العلماء الموثوق بهم ، والجميع عليهم أن يبتعدوا عن الجهال والعلماء المضلّين الذي يفتون بغير ما أنزل فيَضِلُّون ويُضلُّون ، نسأل اللّه السلامة والعافية .

ويحضرني في هذه المناسبة حكاية القائد الروماني الذي جمع فلوله في أنطاكية بعد اندحارهم من جيوش المسلمين ، وجمع كبار جيشه وقال لهم : ما بال هؤلاء القوم ونحن أكثر منهم عدة وعتادًا ، وأقدر على ممارسة الحروب يغلبوننا ولم ننتصر عليهم ولا مرة ، فأجابه شيخ من قواده قائلاً : أتأذن لي بالجواب ؟ قال : نعم قل ، قال : لأنهم يطيعون اللّه ونحن نعصيه ، ويحبون الموت ونحن نكرهه ، ويصلون بالليل ونحن نجاهر فيه بالمعاصي ، ولا يمكن أن نتغلّب عليهم مهما أوتينا من قوة ، قال : وهل سننتصر عليهم مستقبلاً ؟ قال : نعم ، ففرح وقال : متى ؟ قال : إذا تساووا معنا في معصية اللّه ، وأصبح مطلبهم الدنيا والشهرة ، ذلك الوقت يسلطنا اللّه عليهم ونغلبهم .

ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عندما صالح المشركين في الحديبية ، تأثر من ذلك بعض الصحابة ، وحاولوا معصية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكان في هذا الصلح خير للمسلمين ونصر للإسلام .

نسأل اللّه أن يُبَصِّر المسلمين بفهم دينهم فهمًا حقيقيًّا ، وأن يرزقهم حسن الاتباع والتقوى ، واللّه يقول : ﴿ واتقوا اللّه ويعلمكم اللّه ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، ويقول سبحانه : ﴿ ومن يتق اللّه يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ۞ ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه إن اللّه بالغ أمره قد جعل اللّه لكل شيء قدرًا ﴾ [الطلاق : ٢،٣] ، والحمد للّه أولاً وآخرًا .

إعداد / جمال سعد حاتم

موضوع العدد

الرقم (١٣) بين الضدين

الحلقة الأولى

يُقال في المثال : الجهل داء قاتل ، وقد وصف اللَّه النصارى في سورة « الفاتحة » بأنهم ضالون ؛ لأنهم يحكمون على الأمور بدون مستند صحيح : لا من كلام اللَّه ، ولا مما جاء عن أنبيائهم ، وقد أخبر اللَّه سبحانه عن أهل الكتاب أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، وأنهم اشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلاً فبئس ما يشترون ، والإنسان المسلم يدعو في صلاته وفي كل ركعة فيها في اليوم والليلة ، فريضة أو نفلاً ، عندما يقرأ « الفاتحة » ؛ بأن يجنبه اللَّه طريق المغضوب عليهم ، وطريق الضالين .

وجاء في التفاسير : أن المغضوب عليهم اليهود ، الذين يعرفون الحق ويعاندون ، وأن الضالين هم النصارى ، يعبدون اللَّه على جهل وضلال ، وقد روي عن سفيان بن عيينة ، رحمه اللَّه ، وهو من كبار علماء المسلمين في القرون المفضلة قوله : من فسد من علماء المسلمين ، ففيه شبه باليهود ، ومن فسد من عباد المسلمين ففيه شبه بالنصارى .

إنّ من يتابع دقائق الأمور بنماذج محسوسة يدرك مغزى هذه الدلالة ، ذلك أن الجهل يدفع الإنسان إلى التعصب لمعتقده ، بغير ركيزة مقنعة ، ولا معتمد ثابت في دلالته ، وإنما هي أوهام يحرص عليها ، في تقوية ما يميل إليه ، وقد يتحول هذا المعتقد إلى عقيدة يتعبد اللَّه بها ، توقعه في ما هو أكبر من التعصب ، لينصرف بذلك إلى عبادة اللَّه بما لم يأذن به اللَّه ، ولم يأمر به رسوله ، وكل شيء لم يختم بهذا الخاتم فهو عمل خاسر مردود على صاحبه ، يقول سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلنا هباءً منثورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وسنضرب لذلك بالرقم (١٣) الذي جعله النصارى نذير شؤم ، ورمز نحس ، وشاع هذا عندهم ، وسببه معتقد ديني عندهم ، سنوضحه بالتفصيل ، حتى أن بعض من ينتمي إلى الإسلام قد أخذه عنهم عقيدة وتقليدًا ، لكن دون عمق في الأصل والدلالة ، وهذا شبيه بكثير من العادات التي وفدت على ديار المسلمين تقليدًا ، ومحاكاة للغربيين في عاداتهم وتقاليدهم ، دون تمعن في المقصد وراء ذلك الأمر ، ودون عرضه على منهج الإسلام ، حتى يتميز سلامة ذلك الأمر أو ضرره .

بينما جاء في الجانب الآخر من أدعياء الإسلام ، من يرفع هذا الرقم إلى مكانة رفيعة ، مدعومة بمنامة ، وبوقائع اختلقها واضع تلك النشرة ، ليحصل المرء على جزاء ظاهر دون عبادة مشروعة .

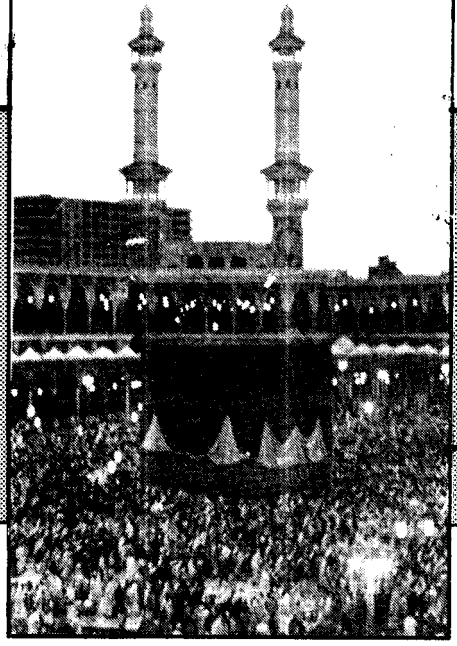

بقلم الدكتور / محمد بن سعد الشويعر
(رئيس تحرير مجلة البحوث ، ومستشار مكتب سماحة مفتي المملكة العربية السعودية)

ونظرًا لانتشار الحالين : التشاؤم من هذا الرقم في تقليد لمعتقد راسخ عند النصارى ، والتعلّق بهذا الرقم ، في تصديق لهذه المنامة الخرافية ، رأيت من المناسب التحدث في هذا الأمر لجلاء الحقيقة ، ولإيضاح ما قاله علماء الإسلام .

● **أولاً : نظرة المتعلقين بهذا الرقم :** يلاحظ المهتمون أن بين فترة وأخرى ينتشر بين الناس ، وخاصة في المدارس - بنين وبنات - دعوة إلى التعلق بهذا الرقم في مثل هذا النص : (أخي المسلم ، أختي المسلمة ، مرضت فتاة عمرها (١٣) عامًا ، مرضًا شديدًا عجز الطب في علاجها ، وفي ذات ليلة اشتدّ بها المرض ، فبكت حتى غلبها النوم ، فرأت في منامها بأن السيدة زينب ، رضي اللّه عنها ، وضعت في فمها قطرات - وتأتي في بعض النشرات : أعطتها شربة ماء - فاستيقظت من نومها ، وقد شفيت من مرضها تمامًا ، وطلبت منها السيدة زينب ، رضي اللّه عنها ، أن تكتب هذه الرواية (١٣) مرة ، وتوزعها على المسلمين للعبرة في قدرة الخالق جلت قدرته - وفي بعض النشرات : ووجدت قطعة قماش مكتوب عليها : تنشر هذه الرسالة وتوزع على (١٣) فردًا - فنفذت الفتاة ما طلب منها ، وقد حصل ما يلي : النسخة الأولى : وقعت بيد فقير ، فكتبها ووزعها ، وبعد مضي (١٣) يومًا شاء المولى أن يغتني هذا الفقير ، والنسخة الثانية : وقعت في يد عامل فأهملها ، وبعد مضي (١٣) يومًا فقد عمله ، والنسخة الثالثة : وقعت في يد أحد الأغنياء ، فرفض كتابتها ، وبعد مضي (١٣) يومًا فقد كل ما يملك .. بادر أخي المسلم ، أختي المسلمة بعد الاطلاع على هذه الرواية في كتابتها (١٣) مرة ، وتوزيعها على الناس ، فقد تنال ما تتمنى من المولى الكريم جل شأنه) . اهـ .

ومن يتابع هذه النشرات يجدها تختلف في الصياغة ، لكنها تتفق في المغزى الخرافي ، الذي يدعو إلى التعلق بغير اللّه سبحانه ، وهذا أول برهان على كذبها .

وأن خير ردّ على هذا ، وتفنيد للمزاعم ، هو ما صدر بشأن هذه النشرة من سماحة الشيخ / عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز ، مفتي عام المملكة العربية السعودية - حفظه اللّه وأمد في عمره - المنشور في الجزء الثامن من مجموع فتاوى سماحته (ص ٣٤٦- ص٣٤٨) ، يقول سماحته - حفظه اللّه -: ولما اطلعت على هذه النشرة المفتراة ، رأيت أن من الواجب التنبيه على أن ما زعمه كاتبها ، من ترتب فوائد ومصالح لمن قام بكتابتها وترويجها ، وترتب مضار لمن أهملها ولم يقم بنشرها ، كذب لا أساس له من الصحة ، بل

هي من مفتريات الكذابين والدجالين ، الذين يريدون صرف المسلمين عن الاعتماد على ربهم سبحانه في جلب النفع ، ودفع الضر وحده لا شريك له ، مع الأخذ بالأسباب الشرعية والمباحة إلى الاعتماد والاتجاه إلى غيره سبحانه وتعالى في طلب جلب النفع ، ودفع الضر ، والأخذ بالأسباب الباطلة غير المباحة ، وغير المشروعة ، وإلى ما يدعو إلى التعلق على غير اللّه سبحانه وعبادة سواه ، ولا شك أن هذا من كيد أعداء الإسلام للمسلمين ، الذين يريدون صرفهم عن دينهم الحق ، بأي وسيلة كانت .

وعلى المسلمين أن يحذروا هذه المكائد ولا ينخدعوا بها ، كما أنه يجب على المسلم أن لا يغتر بهذه النشرة المزعومة وأمثالها من النشرات التي تروّج بين حين وآخر ، وسبق التنبيه على عدد منها ، ولا يجوز للمسلم كتابة هذه النشرة وأمثالها ، والقيام بتوزيعها بأي حال من الأحوال ، بل القيام بذلك منكر يأثم من فعله ، ويخشى عليه من العقوبة العاجلة والآجلة ؛ لأن هذه من البدع ، والبدع شرها عظيم ، وعواقبها وخيمة .

وهذه النشرة على هذا الوجه من البدع المنكرة ، ومن وسائل الشرك والغلو في أهل البيت وغيرهم من الأموات ، ودعوتهم من دون اللّه ، والاستغاثة بهم واعتقاد أنهم ينفعون ويضرون من دعاهم أو استغاث بهم .

ومن الكذب على اللّه سبحانه ، وقد قال اللّه سبحانه : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات اللّه وأولئك هم الكاذبون ﴾ [النحل : ١٠٥] ، وقد قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ » . [متفق على صحته] .

فالواجب على جميع المسلمين ، الذين تقع في أيديهم هذه النشرة وأمثالها تمزيقها وإتلافها ، وتحذير الناس منها ، وعدم الالتفات إلى ما جاء فيها من وعد أو وعيد ؛ لأنها نشرات مكذوبة لا أساس لها من الصحة ، ولا يترتب عليها خير ولا شر ، ولكن يأثم من افتراها ، ومن كتبها ووزعها ، ومن دعا إليها وروّجها بين المسلمين ؛ لأن ذلك كله من باب التعاون على الإثم والعدوان الذي نهى اللّه عنه في محكم كتابه بقوله جل وعلا : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب ﴾ [المائدة : ٢] .

نسأل اللّه لنا وللمسلمين السلامة والعافية من كل شر ، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل على من افترى هذه النشرة وأمثالها ، وأدخل على المسلمين في شرع اللّه ما ليس منه ، ونسأل اللّه أن يعامله بما يستحق ، لكذبه على اللّه ، وترويجه الكذب ، ودعوته الناس إلى وسائل الشرك والغلو في الأموات ، والاشتغال بما يضرهم ولا ينفعهم ، وللنصيحة للّه ولعباده جرى التنبيه على ذلك ، وصلى اللّه وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .

فمثل هذه النشرة قصد كاتبها الإضرار بالناس في عباداتهم وعلاقتهم بخالقهم ، ومعصيتهم له في صورة أمر كأنه جاء معجزة من الأموات ، وهذا من تضليل الشيطان وأعوانه ؛ لأنه أخذ على نفسه عهدًا أمام اللّه جلت قدرته أن يضلل البشر ، ولا يكون أكثرهم شاكرين للّه ، مستجيبين لأمره ، طائعين لرسله ، عليهم الصلاة والسلام .

فكان عدو اللّه يلتمس من البشر مواطن الضعف ، ويدخل عليهم من رغبات النفس ، حتى تلين عرائكهم ، ويستسلموا لهواجسه ووساوسه ، ثم ينقادوا لمن يوجههم أعوانه في أمور لم يأذن بها اللّه ولا رسوله ، وقد تكون هذه الشبهة أيضًا قد أُدخلت على النصارى ، وهم الذين رسخ في أذهانهم التشاؤم من يوم الجمعة ، ومن الرقم (١٣) لاقتران ذلك بمؤثرات حصلت لهم ، فكان ذلك يوم نحس وتشاؤم ، بعد أن نسوا التعلق باللّه ، ومسبب الأسباب سبحانه ، وهذا ما سوف نشير إليه في ثانيًا ، وهو يتعلق بنظرتهم إلى الرقم (١٣) .

● **ثانيًا** : يعتبر رقم (١٣) رمزًا للتشاؤم في مجتمعات اليهود والنصارى ، وقد سرى أثر هذا

إلى بعض ديار الإسلام ، حيث نقرأ بين حين وآخر لكبار الكتاب في بعض المجتمعات الإسلامية ، ممن يعتبرون رعيلاً أول في ريادة القلم ، وتوجيه الكلمة ، أنهم يذكرون دور هذا الرقم مقرونًا بالتشاؤم ، واهتمامهم بمسخه من أرقام تعاملهم ، بل ويشيرون في التنفير منه .

فإن أخذ أحدهم رقمًا هاتفيًا تحاشى أن يبدأ أو ينتهي بثلاثة عشر ، وإن أعطي رقمًا لسيارته أو منزله ، أو أي شيء في تعامله ، حرص جاهدًا ألاَ يكون فيه هذا الرقم ، وهكذا في شئون حياته العادية ، بل يتمعر وجهه ، وتتغير ملامحه عندما يمر به هذا الرقم (١٣) .

وبصرف النظر عن جذور ذلك الرقم عند النصارى ، واقترانه بهزائم الصليبيين أمام جيوش المسلمين في حروبهم العديدة ، كما سنوضح ذلك في بعض النماذج المنتقاة من تواريخهم المدونة .

فإن ديننا الإسلام الذي أكرمنا الله به ، ينهى عن التشاؤم وعن التعلق بالأوهام ، يقول صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ويعجبني الفأل » ، قالوا : يا رسول الله ، وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة » . [أخرجه البخاري ومسلم] .

كما أن المسلم مأمور بحسن التوكل على الله ، وتسليم الأمور لله ، كما جاء في أكثر من أربعين موضعًا من القرآن الكريم ؛ لأن الله سبحانه يحب المتوكلين ، كما أن من أركان الإيمان الستة : « الإيمان بالقدر ، خيره وشره » ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته في وصية شاملة : التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم لن يضلوا ما داموا حريصين عليها . وللحديث بقية إن شاء الله .

● **مكانة ابن حنبل** : ذكر الذهبي في ترجمة بقيّ بن مخلد : أنه رحل من مكة إلى بغداد ، وكان رجلاً بغيته ملاقاة أحمد بن حنبل ، قال : فلما قربت بلغتني المحنة التي حلّت بأحمد ، وأنه ممنوع ، فاغتممت غمًا شديدًا ، فاحتللت ببغداد ، واكتريت بيتًا في فندق ، ثم أتيت الجامع وأنا أريد أن أجلس إلى الناس ، فدفعت إلى حلقة نبيلة ، فإذا رجل يتكلم في الرجال ، فقيل لي : هذا يحيى بن معين ، ففرجت لي فرجة فقمت إليه ، فقلت : يا أبا زكريا – رحمك الله – رجل غريب ناءٍ عن وطنه ، يحب السؤال ، فلا تستجفني ، فقال : قل ، فسألت عن بعض من لقيته ، فبعضًا زكّى ، وبعضًا جرح ، فسألته عن هشام بن عمار ، فقال لي : أبو الوليد صاحب صلاة دمشق ، ثقة ، وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كبر أو متقلدًا كبرًا ، ما ضره شيئًا لخيره وفضله ، فصاح أصحاب الحلقة : يكفيك رحمك الله ، غيرك له سؤال ، فقلت وأنا واقف على قدم : اكشف عن رجل واحد : أحمد بن حنبل ، فنظر إليّ كالمتعجب ، فقال لي : ومثلنا نحن نكشف عن أحمد ؟! ذاك إمام المسلمين ، وخيرهم وفاضلهم ، فخرجت استدل على منزل أحمد بن حنبل ، فدللت عليه ، فقرعت بابه ، فخرج إليّ ، فقلت : يا أبا عبد الله ، رجل غريب ناءٍ الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ومقيّد سنة ، ولم تكن رحلتي إلا إليك ، فقال : أدخل الإصطوان ولا يقع عليك عين ، فدخلت ، فقال لي : وأين موضعك ؟ قلت : المغرب الأقصى ، فقال أفريقية ؟ قلت : أبعد من أفريقية ، أجوز من بلدي البحر إلى أفريقية ، بلدي الأندلس ، قال : إن موضعك لبعيد ، وما كان شيء أحب إليّ من أن أحسن عون مثلك ، غير أني ممتحن بما لعله قد بلغك ، فقلت : بلى قد بلغني ، وهذا أول دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زي السُؤال ، فأقول عند الباب ما يقوله السُؤال ، فتخرج إلى هذا الموضع ، فلو لم تحدثني كل يوم إلا بحديث واحد لكفاني ، فقال : نعم ، على شرط أن لا تظهر في الخلق ولا عند المحدثين ، فقلت : لك شرطك ، فكنت آخذ عصًا وألف رأسي بخرقة بالية وأصيح : الأجر يرحمك الله ، فيخرج إليّ ويحدثني . [سير أعلام النبلاء : ١٣/٢٩٣] .

الرقم (١٣)

بين الضدين

الحلقة الأخيرة

بقلم الدكتور / محمد بن سعد الشويعر
(رئيس تحرير مجلة البحوث ، ومستشار مكتب سماحة مفتي المملكة العربية السعودية)

وعن الرقم (١٣) فقد جاءت فكرته عندهم ، من جمع أرقام الآحاد والعشرات والمئات والألوف إن كان في الرقم ألوف ، من كل سنة ميلادية ، حصل فيها انهزام للصليبيين في حروبهم أمام جيوش المسلمين ليصبح الرقم (١٣) هو حاصل الجمع ، وهذا فيه مدخل من مداخل التنجيم والتشاؤم من مطالع النجوم ، الذي ينهى عنه الإسلام .

ولكي يدرك المسلم هذا السر الذي رسخه مؤرخوهم القدامى ، وبثوا أثره في قلوب قادتهم لتخويفهم من هذا الرقم ، وما يحمل من نذائر شؤم ، فقد أيده المنجمون عندهم ، وأن عليهم ألا يقدموا على أي معركة مع المسلمين ، يبرز في مجموع سنواتها الرقم (١٣) ، ويشتد الأمر إذا اقترن هذا الرقم مع يوم الجمعة ، لما في ذلك من نذارة الهزيمة ، إذْ لذلك نماذج في حياتهم من حيث التشاؤم بالطالع والزاجر ، كما كانت تعتقد العرب في جاهليتها ، حيث مقت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذلك ، وحذرت منه تعاليم شريعة الإسلام ، إبعادًا وتشديدًا .

وسأورد هنا على سبيل المثال لا الحصر النماذج التالية التي توثق عقيدتهم في التشاؤم بهذا الرقم :

١- في عام ٥٢٤ هـ ذكر ابن الأثير في « تاريخه » : أن عماد الدين زنكي ، أمر عسكره أن يتجهزوا للغزو ، وقصد حلب ، فقوي عزمه على قصد حصن الآثارب ، ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين ، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها ، ويضيقون عليهم معيشتهم فأظفره اللّه بمن فيه ، وتسلم الحصن عنوة ، وضعفت قوة الصليبيين بعد ذلك ، حيث انهزموا في كثير من ديار المسلمين بالشام ذلك العام . [الكامل : ١٠:٦٦٢] .

وهذا التاريخ يوافق بالإفرنجي - وهو تاريخهم الميلادي - عام ١١٢٩ م ، ولو جمعنا أرقام هذا العام لخرجت ١٣ هكذا (٩ + ٢ + ١ + ١ + = ١٣) .

٢- ذكر الدكتور سالم الرشيدي : في كتابه « محمد الفاتح » ، الذي قدم لطبعته الثانية الشيخ علي الطنطاوي :

أ- أن العثمانيين حاصروا أمير جزيرة لسبوس الجنوبي عام ٨٦٧ هـ ، وكان فيها المؤرخ جان دوكاس ، الذي ينتمي لإحدى الأسر البيزنطية العريقة في السيادة الإمبراطورية فدكوا أسوارها بالمدافع ، وسقطت في أيديهم ، وانهزم النصارى ، وقد روي أن المذكور قد كتب تاريخه في ذلك العام ، فنفث فيه سموم ضد المسلمين ، وظهرت منه عداوته الحقيقية . [ص١٢ من هذا الكتاب] .

وهذه السنة تعتبر في نظر ذلك الكاتب ، نهاية الدولة البيزنطية على أيدي المسلمين عام ١٤٦٢ م ، الذي هو عام ٨٦٧ هـ ، وبجمع أرقام ذلك التاريخ الميلادي ، يخرج الناتج (١٣) ثلاثة عشر هكذا (٢ + ٦ + ٤ +١ = ١٣) .

ب- أن السلطان محمد الفاتح ، قد استولى على القسطنطينية عاصمة الرومان قرونًا متطاولة ، حيث سقطت أمام جيوشه عام ٨٥٧ هـ ، بعد حصار طويل وقوي ، تهاوت معه قلاع الصليبيين وقوتهم ، واحدًا بعد الآخر ، وكان فتحًا مبينًا للمسلمين ، استبشروا به ، وتحولت معه أكبر كنائس النصارى في هذه المدينة المسماة : « أيا صوفيا » إلى مسجد ، صلى فيه القائد : محمد الفاتح بمن معه من المسلمين الجمعة الأولى في تاريخ هذه المدينة ، حيث أصبحت من هذا التاريخ قاعدة إسلامية ، تهز حصون الصليبيين ، وتقض مضاجعهم ، وسميت منذ ذلك اليوم إسلام بول ، أي مدينة الإسلام . ونطقت إسطامبول .

وكان من المحصورين فيها ، وممن شهد سقوطها المؤرخ (جورج فرانترتس) صديق الإمبراطور قسطنطين وأمينه ، وصاحب مشورته ، الذي يعتد برأيه ، وهو رجل حقود انعكس تاريخه على كل منافس له ، فكيف بمن استولى على بلده ، وطرده منها ، وحول معابدها من عقيدة المؤرخ الفاسدة ، إلى دين الإسلام الحق . [المصدر السابق ص١١] .

وهذه السنة توافق بالميلادي عام ١٤٥٣ م ، وبجمع هذه الأرقام ، يخرج الناتج ثلاثة عشر (٣ + ٥ + ٤ + ١ = ١٣) .

٣- أما الرجل الثاني في توطيد أركان دولة الإسلام في الأندلس ، القائد المظفر ، الذي لم تنهزم له راية أمام الإفرنج ، حتى أنه ألجأهم إلى جبال البرانس في الشمال ، القريبة من فرنسا ، وحقد عليه مؤرخوهم ، كما ذكر ذلك المؤرخ محمد عبد الله عنان في كتابه « دولة الإسلام في الأندلس » ، فهو عبد الرحمن الناصر ابن الحاكم الأموي ، وقد استهل حروبه معهم عام ٣٠٠ هـ ، وهذا التاريخ يوافق بتاريخ الإفرنج عام ٩١٣ م ، وبجمع أرقامه يصبح الناتج ثلاثة

عشر ، هكذا : (٣ + ١ + ٩ = ١٣) .

مع أن رقمي الآحاد والعشرات أيضًا هو رقم ١٣ .

وهكذا لو سرنا مع وقائع التاريخ ، والحروب الصليبية ، فإننا سنجد ارتباطًا وثيقًا بين الحوادث التي اهتم بها مؤرخوهم ، وأحدثت نكسة عليهم ، وبين هذا الرقم ، الذي اعتبروه شؤمًا عليهم ؛ لأن كل راية لهم ترفع أمام راية الإسلام تسقط بتوفيق اللَّه ، ودولتهم أمام زحف الإسلام تتزحزح ، وعزهم أمام مكانة الإسلام وعزته ينخذل ، فهم يريدون أن يوهموا السذج بأن سرّ هذا ليس قوة الإسلام ، وإنما هو الرقم (١٣) ، والمتخذ تشاؤمه من طالع النجوم كضرب من ضروب السحر ، واتباع الشياطين ، لكنهم يعزون السر للرقم (١٣) دون تعليل .

وإذا أردنا أن نأخذ أمثلة أخرى ، ففي عام ١٣ هـ ، حيث فتحت مدن الشام : دمشق ، بيسان ، طبرية ، وغيرها حيث تحولت لمدن إسلامية ، حسبما ثبت تاريخيًا ، بعد أن طرد المسلمون الروم من الشام إلى الأبد ، وأخذت الجزية ممن أراد البقاء في تلك الديار ، وعندما قال أحد قوادهم : سلام عليك يا سوريا ، سلامًا لا رجعة بعده أبدًا ، فإنها توافق بتاريخهم الميلادي ٦٣٤ م ، وبجمع أرقام هذا التاريخ تظهر النتيجة هكذا (٤ + ٣ + ٦ = ١٣) ، مع أن هذا التاريخ صادف (١٣) في التاريخ الهجري الإسلامي ، ولكن يعنينا ما ثبت في تاريخهم الميلادي الروماني الذي تنبعث منه عقيدتهم . [راجع حوادث عام ١٣ عند الطبري وابن كثير وابن الأثير] .

وحوادث عام ٥٧٩ هـ ، حيث غزا صلاح الدين الأيوبي بلاد الكرك ، وطرد الصليبيين منها ، وفيها أيضًا تم حصار قلعة البيرة الهامة في الشام ، واستسلام صاحبها وهي من معاقل الصليبيين الهامة ، لقربها من القدس . [يراجع في هذا حوادث هذا العام عند ابن كثير وابن الأثير في تاريخه] .

فإن تلك السنة توافق في تاريخ الإفرنج عام ١١٨٣ م ، وبجمع أرقام هذا التاريخ تظهر النتيجة (١٣) هكذا (٣ + ٨ + ١ + ١ = ١٣) ، وهلم جرا .. وقد يكون هذا الرقم أيضًا له جذور ومعتقدات في وقائعهم قبل الإسلام مع الأمم الأخرى ، أو أنه ربط بوقائعهم مع الإسلام ، لربط بني جلدتهم بما ينفرهم من الإسلام ، والدخول فيه تصديقًا لقول اللَّه سبحانه : ﴿ ولن ترضى عنك اليود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى اللَّه هو الهدى ﴾ الآية [البقرة : ١٢٠] .

ومع ذلك إلا أن من يتتبع أهم الوقائع بين المسلمين والنصارى ، منذ فجر الإسلام ، فإنه سيرى أنه من رحمة اللَّه بعباده المسلمين أن تتم غلبتهم عليهم في سنوات يأتي مجموع أرقامها (١٣) مما يجسمه مؤرخوهم، فيجعلونه يومًا أسودًا في حياتهم ، يرتبط بدلالة هذا الرقم (١٣) ، الذي يتوارثونه جيلاً بعد جيل ، على أنه مصدر شؤم لهم ، يتناذرون عنه ، وترسخ نتائجه في أذهانهم ، منذ الصغر جيلاً بعد جيل .

أما نحن معاشر المسلمين ، فيجب أن نخالفهم ، كما هي سنة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في الأمر بمخالفة أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - حيث نبتهج بتلك السنوات التي تمثل هذا الرقم ، ونحمد اللَّه أن خصنا اللَّه بيوم الجمعة ، الذي هو عيد الأسبوع عندنا ؛ لأن ذلك مما

يبعث النشوة عند المسلمين بصدورهم في ذلك ، عن أوامر شرعية في مصدري الإسلام : كتاب اللّه ، وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ولما تحقق فيها من مواقف مشرفة ، حيث نصر اللّه فيها دينه ، وخذل أعداءه ، فارتفعت راية الإسلام ، وعلا صوت الحق الذي جاء من عند اللّه ، وصار الأذان يعلو مناديًا ، بإقامة الصلاة ، وحث الناس على عبادة اللّه وحده ، وهذا مما يغيظ أعداء اللّه ، وأعداء دين الإسلام ، من الإنس والجن ، ذلك أن تشاؤمهم بيوم الجمعة يوازي تشاؤمهم بالرقم (١٣) ، ونحن المسلمين نصرنا اللّه فيهما .

فعلى شباب الإسلام أن يعي ذلك جيدًا ، حتى يفهموا تاريخ أمتهم ، ليرسخ في الأذهان مقترنًا بالعقيدة الصحيحة ، وحتى لا يكون مثقفو الأمة مقلدين لغيرهم ، فإن عليهم ألا يتكلموا بما لا يعرفون معناه ، وما يُرْمَى إليه بمغزى آخر ، جذوره غير جذور الإسلام ، بل يتباين الهدف مع الإسلام وما يأمر به ، كما أن عليهم ألا يميلوا مع ما لا يدركون نتائجه البعيدة في حياة المسلمين وتاريخهم ، وما يراد سواء من هذا الرقم (١٣) أو غيره ، حيث يحاول بعضهم صياغته بنماذج شتى ، منها التشاؤم كما هو عند النصارى ، ومنها الابتداع في دين الإسلام ، كما هو في خرافة الرؤيا المنسوبة كذبًا لزينب ، رضي اللّه عنها ، وألا يفتحوا باب التشاؤم الذي نهت عنه تعاليم الإسلام ، أو الاتكال بدون عمل ، فيفتحوا على أنهم باب شر بقصد أو بغير قصد ؛ لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . وبهذا يتضح أن الإسلام لا يعطي خصائص لهذا الرقم ، والخير والمصلحة في تعاليمه .

واللّه من وراء القصد .

مكانة الهداية

ذكر الخالديان في كتابهما « التحف والهدايا » : أن علي بن العباس الكاتب قال : كان أبو العباس السفاح يعرف عمارة بن حمزة مولاه بالكبر ، وعلو الهمة والقدر ، وشدة التنزه ، فجرى بينه وبين أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومية زوجته يومًا كلامًا ، فاخرته فيه بأهلها ، فقال لها السفاح : أنا أحضر لك الساعة على غير أهبة ، مولى من موالي ليس في أهلك مثله .

ثم أمر بإحضار عمارة بن حمزة على الحال التي يكون عليها ، فأتاه الرسول في الحضور ، فاجتهد في تغيير زيه ، فلم يدعه وجاء به إلى السفاح ، وأم سلمة خلف الستر ، وإذا عمارة في ثياب ممسكة ، قد لطخ لحيته بالغالية - أي غطاها بالطيب - حتى قامت واستتر شعره ، فقال : ما كنت أحب أن يراني أمير المؤمنين على هذه الحال ، فرمى إليه بمنديل كان بين يديه فيه غالية - نوع من الطيب الفاخر - فقال : يا أمير المؤمنين ، أترى لها في لحيتي موضعًا .

فوجهت إليه أم سلمة عقدًا له قيمة جليلة ، فدفعته إليه مع الخادم ، وقالت للخادم : أعلمه أنني أهديته إليه ، فتركه بين يديه ، وشكر السفاح ، وتركه ونهض ، فقالت أم سلمة لأبي العباس السفاح : إنما أنسيه ، فقال للخادم : ألحقه به ، وقل له : هذا هدية أم سلمة إليك لم خلقته ؟ فأتبعه الخادم وقال : هذا لك ، فلم تركته ؟ فقال : ما هو لي فأرده ، فلما عرفه أن أم سلمة أهدته إليه قال : إن كنت صادقًا فقد وهبته لك ، فانصرف الخادم بالعقد ، وعرف السفاح ما جرى ، فقالت أم سلمة : اردد عليَّ عقدي ، فامتنع الخادم من رده وقال : قد وهبه لي الذي وهبته له ، فلم تزل به إلى أن ابتاعته منه بعشرة آلاف دينار .

[التحف والهدايا ص١٤٣] .

موضوع العدد

هل الفكر بضاعة

بقلم ا / محمد بن سعد الشويعر
رئيس تحرير مجلة البحوث ومستشار مكتب سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية

سؤال يطرح نفسه ، ويريد جوابًا يقنع أولئك السائرين بدون هدف ولا روية ، إلا على مقالة : سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته .

ونحن في هذه الأزمان نرى ونسمع كلامًا كثيرًا عن الفكر ، ومنابع الفكر ، وما يراه زيد في فكر عبيد ، ولهذا أعوان ولذاك ناشرون ، وكل فئة تجهّل الأخرى ، وتنتقد فكرها ، وتراها ليست على شيء ، كما أخبر الله عن أهل الكتاب بعدما تباعدوا عن فهم كتبهم ، وما جاءتهم به رسل الله ، يقول سبحانه : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ [البقرة : ١١٣] ، فأخبر الله عن ضلالهم لابتعادهم عن منهج الله ، الذي اختاره لعباده .

ولذا نرى الشباب المتطلع إلى الفهم الصحيح ، والذين هم أمانة في أعناق الأمة عمومًا ، بالتوجيه الحسن والرعاية ، وأخص علماءها ومفكريها ؛ لأن بيدهم مقود الأمان ، هؤلاء الشباب نراهم حائرين ومتذبذبين بين الأفكار المتصارعة ، ووجهات النظر المتباينة ، وضائق بين حماسة كل فئة لفكر منظريها ، وبين المتزعمين لوجهات نظر في الفكر وافدة وراءها غايات ومآرب خفية ، تتوارى وراء هذا الفرد الذي يردد صداه أتباعه بدون روية ولا فهم ، وقد يكون مغلّفًا بكلمات لينة في ملمسها ، كما روي عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، في مثل هذا الوضع إجابة لسائل تساءل عما يراه علي في دعوة أولئك ، فقال : كلمة حق أريد بها باطل .

ولذا فإن المتعقب يلمس التعصب المقيت عن غير فهم ، وتصحيح مزاعم من ينعق له بدون روية كما يقال في المثل : عنز ولو طارت .

وأخطر تلك الأفكار ما له تعلق بكيان الأمة واستقرارها ؛ من دين به قوام الحياة الدنيا والآخرة ، أو فرع من فروع أعمال الناس فيها :

بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور)) . رواه أحمد في مسنده .

وكتاب اللّه جل وعلا أعطانا فائدة عظيمة ، يجب إدراكها : بأن أمور حياتنا مهما صغرت لم تكن منسية ، بل أرشدنا المصدر التشريعي إلى حياتنا المستقرة ، وأن كل شيء يهمنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا ، قد أوضحه اللّه بقوله سبحانه : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، ويقول عز وجل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء ﴾ [النحل : ٨٩] .

وما خفي على الفرد علمه فإنه مأمور بسؤال العلماء المدركين ، لا العلماء المضللين الذي يفتون بغير ما أنزل اللّه ، وحذرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منهم ؛ لأنهم يَضلون ويُضلون ، يقول سبحانه : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء : ٧] ، ويخبر سبحانه عن صفة هؤلاء العلماء ، الذين يجب سؤالهم بقوله الكريم : ﴿ إنما يخشى اللّه من عباده العلماء ﴾ [فاطر : ٢٨] ، والمراد الخشية الحقيقية ، وهي مراقبته سبحانه في السر والعلن ، وامتثال أمره واجتناب نهيه .

وإذا سلمنا أن الماديات من علوم وصناعات وغيرها من البضائع تستورد من أمم سبقتنا في هذا المضمار ، فإنه مباح لنا الاستفادة من أمور لم تكن محرمة في ديننا ، لكن المحرم هو أن نستورد منهم فكرًا يخالف فكرنا وديننا ، ذلك أن فكرنا المستمد من تعاليم ديننا ثابت وراسخ ، ويجب علينا أن ندعوهم إليه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، أما فكرهم فيدور في حلقة الماديات والمطامع ، والإفساد ، وقد أخبر اللّه عن أصحاب الماديات بقوله الكريم : ﴿ يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم : ٧] ، فمثل هؤلاء لا نأخذ من فكرهم إلا ما يدور في حلقة علمهم بما نحتاجه ، ونستبعد غيره لما لدينا من تحذير منه ؛ بالتحريم أو بمدخل في المداخل الموصلة إلى المساس بديننا وتقاليدنا ؛ لأن القاعدة الأصولية : أن كل ما يتوصل به إلى المحرم فهو حرام ، وقاعدة سدّ الذرائع مأمور بها المسلم ، حتى لا ينفتح الباب المفضي إلى الأمور المحرمة ، أو الداعية إلى الفساد والإفساد ؛ لأن الإسلام إنما ينقض عروة عروة ، والتساهل في الصغائر يجر إلى الكبائر ، كما جاء في الحديث الصحيح : ((إياكم ومحقرات الذنوب)) .

ولذا فإن تبني الأفكار كهذه الوافدة من وراء الحدود ، مهما كان غلافها ودعوة أصحابها ، الذي من أبرز ما فيها : إشاعة التكفير ، وتجهيل العلماء ، والخروج على ولاة الأمور ، وغير ذلك ، ثم الاهتمام بها في المجتمع الإسلامي ، أمر يجب رفضه ، وينبغي ردها لأصحابها بإبانة أخطائها ، إذْ لو كانت خيرًا لحققت لأصحابها فوائد ، ولكنها فتات أفكار ملّها المتصارعون فأزاحوها عن موائدهم ، وذبذبات فكرية مستمدة من أقوال بشرية يناقض بعضها بعضًا ، وقد أخبر الله عن مثل هذا الأمر الذي يجب نبذه

اللّه سبحانه : عقيدة وعملاً ، ونية وإخلاصًا ، ويترتب عليها جزاء من اللّه عاجل وآجل ، وهي لمصلحة الفرد وتكامل المجتمع ، وتماسكه بالوحدة خلف قيادته سمعًا وطاعة ، ويحاط ذلك بفكر سليم ، وفقه عميق .

ومن هنا فإن الذي يجب معرفته أن الفكر ليس بضاعة تجارية ، ولا منافسة اقتصادية ، حتى يحسن بعضها بعضًا ، وحتى يدافع أحدهم عن فكر يتعلق به ويتحمس له ؛ لأنه وافد في مصدره ، وحسب نظرهم القاصر : أن كل وافد مرغوب فيه ، وأن الفكر المحلي - يجب نبذه والزهادة فيه - حتى ولو كان مستمدًا من الرأي الشرعي ، عن اللّه سبحانه ، وعن رسوله الكريم صلى اللّه عليه وسلم ، وهما المصدران الأساسيان للتشريع في الإسلام .

ورغم أن هذا الفكر قريب التناول ، ومن يتمسك به ويدافع عنه ما هم إلا علماء وقادة ، نبعوا من هذه البيئة ، وأدركوا واجبهم نحو خالقهم وما أمرهم به ، ولم يتبعوا أيًا من الأفكار العديدة المتصارعة على وجه الأرض ، بل صمدوا في وجه تيارها حمية للّه ، ودفاعًا عن دينه ، فجاء من يحمل فكرًا وافدًا لمآرب وغايات ليطمس الحق ، ويلبسه الباطل ، ولكن اللّه متمّ نوره ، ظانين أن الفكر عندما يغلف يمكن الاختفاء به كالبضاعة ، وإذا كان العقل البشري والرغبات الشخصية للناس في مساكنهم ومراكبهم ، وشتى أنواع استعمالاتهم يقبلون متابعة كل جديد من المخترعات والمصنوعات مهما كانت ، فلأن المهتمين بها يريدون مكسبًا ماديًا تزيد به بضاعتهم ، وتنمو مصانعهم وشركاتهم ، فإنه يحق لهم بذلك أن يجددوا ، بل أخضعوا جزءًا كبيرًا من مواردهم لهذا الغرض ، فكرًا وعملاً ، رغبة في السيطرة على أذهان المنهكين ، وابتزاز أكبر قدر من مواردهم ، ومنافسة لمن يشابههم في الصنعة ، لكن الفكر لا يخضع لهذه المقاييس والمزايدات ؛ لأن ما يشتمل عليه هذا الفكر من حرص على تبني الوافد ، يجب تمحيصه وعرضه على الفكر السليم ، لغربلته وإدراك مساوئه ، حيث إن للمسلم منطلقًا في كل أمر من أمور حياته ، يرشده لما هو صحيح ، ويباعده عن كل ما لا خير فيه ، فينظر في هذا الفكر ، كما ينظر في البضاعة ، فيأخذ بالسليم ، وينفي السقيم .

والأفكار الوافدة ، وإن كان ملمسها لينًا ، فإنها ذات أهداف عديدة : قريبة وبعيدة ، ولذا يجب نبذها والعودة إلى المحك الذي توزن به الأمور في عقيدة المسلم ، كما أخبر صلى اللّه عليه وسلم في وصيته لأمته ، عندما طلب منه الصحابة الوصية ، فقال : ((عليكم بالسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وقد تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب اللّه وسنتي)) . وأمر صلى اللّه عليه وسلم في حجة الوداع ، وفي حديث العرباض بن سارية ، الذي جاء عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا

بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور)) . رواه أحمد في مسنده .

وكتاب اللّه جل وعلا أعطانا فائدة عظيمة ، يجب إدراكها : بأن أمور حياتنا مهما صغرت لم تكن منسية ، بل أرشدنا المصدر التشريعي إلى حياتنا المستقرة ، وأن كل شيء يهمنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا ، قد أوضحه اللّه بقوله سبحانه : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، ويقول عز وجل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء ﴾ [النحل : ٨٩] .

وما خفي على الفرد علمه فإنه مأمور بسؤال العلماء المدركين ، لا العلماء المضللين الذي يفتون بغير ما أنزل اللّه ، وحذرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منهم ؛ لأنهم يَضلون ويُضلون ، يقول سبحانه : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [الأنبياء : ٧] ، ويخبر سبحانه عن صفة هؤلاء العلماء ، الذين يجب سؤالهم بقوله الكريم : ﴿ إنما يخشى اللّه من عباده العلماء ﴾ [فاطر : ٢٨] ، والمراد الخشية الحقيقية ، وهي مراقبته سبحانه في السر والعلن ، وامتثال أمره واجتناب نهيه .

وإذا سلمنا أن الماديات من علوم وصناعات وغيرها من البضائع تستورد من أمم سبقتنا في هذا المضمار ، فإنه مباح لنا الاستفادة من أمور لم تكن محرمة في ديننا ، لكن المحرم هو أن نستورد منهم فكرًا يخالف فكرنا وديننا ، ذلك أن فكرنا المستمد من تعاليم ديننا ثابت وراسخ ، ويجب علينا أن ندعوهم إليه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، أما فكرهم فيدور في حلقة الماديات والمطامع ، والإفساد ، وقد أخبر اللّه عن أصحاب الماديات بقوله الكريم : ﴿ يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم : ٧] ، فمثل هؤلاء لا نأخذ من فكرهم إلا ما يدور في حلقة علمهم بما نحتاجه ، ونستبعد غيره لما لدينا من تحذير منه ؛ بالتحريم أو بمدخل في المداخل الموصلة إلى المساس بديننا وتقاليدنا ؛ لأن القاعدة الأصولية : أن كل ما يتوصل به إلى المحرم فهو حرام ، وقاعدة سدّ الذرائع مأمور بها المسلم ، حتى لا ينفتح الباب المفضي إلى الأمور المحرمة ، أو الداعية إلى الفساد والإفساد ؛ لأن الإسلام إنما ينقض عروة عروة ، والتساهل في الصغائر يجر إلى الكبائر ، كما جاء في الحديث الصحيح : ((إياكم ومحقرات الذنوب)) .

ولذا فإن تبني الأفكار كهذه الوافدة من وراء الحدود ، مهما كان غلافها ودعوة أصحابها ، الذي من أبرز ما فيها : إشاعة التكفير ، وتجهيل العلماء ، والخروج على ولاة الأمور ، وغير ذلك ، ثم الاهتمام بها في المجتمع الإسلامي ، أمر يجب رفضه ، وينبغي ردها لأصحابها بإبانة أخطائها ، إذْ لو كانت خيرًا لحققت لأصحابها فوائد ، ولكنها فتات أفكار ملّها المتصارعون فأزاحوها عن موائدهم ، وذبذبات فكرية مستمدة من أقوال بشرية يناقض بعضها بعضًا ، وقد أخبر اللّه عن مثل هذا الأمر الذي يجب نبذه

بقوله الكريم : ﴿ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

وما ذلك إلا أن فكر الإسلام لا يخضع للمزايدات ولا للمساومات ، وينـاهض الكذب والمخادعة ، فهو يقرن طاعة اللَّه بطاعة رسوله الكريم ، وطاعة ولاة الأمور ، ويأمر بالسمع والطاعة لهم في المنشط والمكره ، وطاعة اللَّه تعني الامتثال لأمره سبحانه ، واجتناب ما نهى عنه بصريح القول في القرآن الكريم ، أو بفهم العلماء المعتبرين وأصحاب الأهواء والغايات .

وطاعة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في التمسك بسنته الصحيحة الثابتة ؛ القولية والفعلية والتقريرية ، والحرص على ذلك قولاً وعملاً ، أما طاعة ولاة الأمور من العلماء والحكام ففيما لا يتعارض مع أمر اللَّه ، وأمر رسوله : ((أطيعوهم ما أطاعوا اللَّه فيكم)) . و((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)) . ومعاداة من يعاديهم : ((من جاءكم وأمركم بينكم جميع يريد تفريق كلمتكم ، فاضربوا عنقه كائنًا من كان)) . رواه مسلم .

فالصحابة ، رضوان اللَّه عليهم ، ومعهم كبار التابعين قد رأوا من بعض أمراء بني أمية أمورًا أنكروها ، ولكنهم لم يخرجوا عليهم ، ولم يكفروهم ولم يدعوا لنقض بيعتهم والخروج عليهم ، ولنا فيهم أسوة حسنة ، بفهمهم وبعد نظرهم .

وما ذلك إلا أن الفكر السليم هو المستمد من توجيه القرآن الكريم بالدعوة إلى التفكر والتعبد والتأمل ؛ لأنه فكر مرتبط بالوجدان ، ومسيّر لحسن العبادة للَّه ، وموضح لما قد يخفى من الأمور المرسخة للعلاقة باللَّه سبحانه ، وليست تعصبًا لفرد من البشر ، أو تحمسًا لدعوة حزبية مقيتة . واللَّه الموفق .

تعريف العدد

صدر العدد (٩٠) لعام ١٤١٨ هـ من مجلة الجندي المسلم ، وهي مجلة إسلامية ثقافية عسكرية فصلية تصدرها الشئون الدينية للقوات المسلحة .

واحتوى العدد على كلمة توجيهية لفضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين في الوفاء بالعقود وأداء الأمانة .

كما يشتمل على مقالاتٍ وفتاوى تتعلق بالحج وأحكامه وبعض قرارات المجمع الفقهي الهامة .

كما احتوى العدد على الرسالة التي وجهها أمين عام رابطة العالم الإسلامي إلى الكونجرس الأمريكي بشأن عروبة مدينة القدس .

وغير ذلك من المقالات المفيدة ، وللمجلة اهتمامٌ خاص بشئون المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وبيان مكائد أعداء الإسلام وفضح مخططاتهم ، والمجلة جديرة بالاطلاع .

موضوع العدد

من مدرسة الحج والصبر

خواطر حاج

بقلم الدكتور / محمد بن سعد الشويعر

مستشار مكتب سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية رئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية

الحج جامعة متكاملة بها شعب وفنون ، وعلوم ومعارف ، فهو يوطن النفوس ويثقفها ، وهو يهديها ويعلمها ، فمن مدرسته تنهل النفوس ، وترتوي الأفئدة .

والحج كسائر العبادات في الإسلام ، علاوة على كونها عبادة تؤدى للّه خالصة من القلوب ، واستجابة للأمر الذي فرضه اللّه سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

فإن هذا الأمر يربط المخلوق بالخالق ، ويرقق القلوب التي تؤدي هذه العبادة بنفس راضية ، ورغبة فيما عند اللّه .. ومع هذا فإن هذه النفوس تخرج من كثير من العبادات في الإسلام بفوائد تلمسها ، ونتائج تحسها ذات أثر في الحياة معينة على تخطي صعابها وتجاوز عقباتها .

والنفوس المتروية بمنهل الإسلام ، والمتشبعة من معينه ترجع الفوائد والاستنتاجات إلى ما يؤثر في النفوس ، ويعود على المجتمع بالخير والنفع وفق إطار الإسلام وقيمه العليا التي يتأسس عليها المجتمع المثالي بقيمه وأخلاقه ، ووفق المعايير التي تحاول كثير من الأمم والأفراد على وضعها بنماذج المثاليات التي تتطلع إليها ، فالإسلام بشرائعه وتعاليمه ، وباستنتاجات العارفين من كل فن عن المردود من أوامره ونواهيه ، فإنه يأتي في القمة من كل أمر وفي المكان الرفيع من كل نتيجة .

ويتضح مثل هذا مما أجراه الدارسون من مسلمين وغيرهم عن المردود لكل عمل يقوم به الفرد في الإسلام ، مما يعود عليه وعلى أبناء مجتمعه بالخير والفائدة .

وهذه النتائج شهادات لمن لا يؤمنون إلا بما هو محسوس وملموس بأن الإسلام علاوة على كونه بشرائعه مخاطبة للوجدان ، فهو رفيع المنزلة بالفوائد بعيدة المدى ، التي تتجدد نتائجها مع كل جديد يطرأ في حياة الإنسان على وجه الأرض ، وفي هذا دلالة على عالمية الإسلام وديمومته ، وصلاحه لكل عصر ومكان .

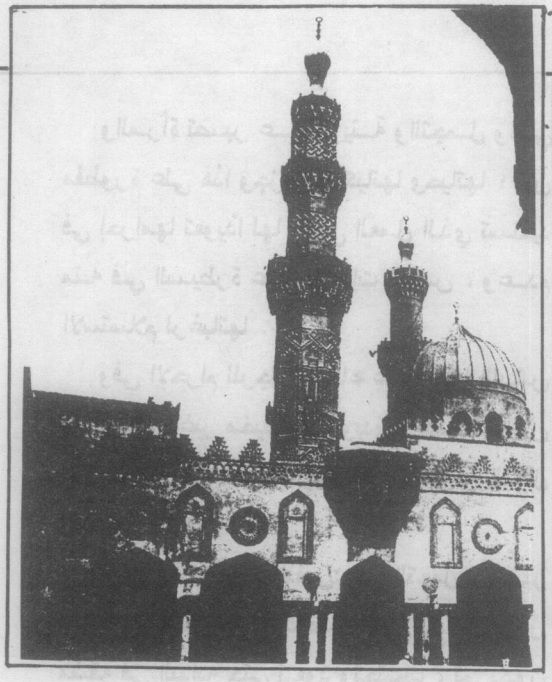

سنأخذ اليوم درسًا من دروس الحج في الصبر ؛ لأن للصبر مكانة كبيرة في الإسلام ، فهو محور الأعمال ؛ والمسيطر على الانفعالات وسائر التصرفات .

وللصبر مكانة عامة في عقيدة الإسلام ، ومنزلة خاصة في كل عبادة من العبادات ، فهي تنميه وتقويه ، وتوصله وتدفع النفوس للتخلق به . وفي الحج نلمس مكانة الصبر في تهذيب النفس وتوطينها على أمور عديدة ، فعندما تسير مع الحاج منذ أن يبدأ فكرة الحج ويستجمع نفسه وشئونه للمسير في رحلته التعبدية مع اللّه في استجابة للأمر وطواعية في التنفيذ ، فإننا نلمس منه أمورًا :

يتصبر في النفقة والتوسيع على نفسه حتى يجمع نفقة الحج التي يحرص بأن تكون من مكسب حلال ، فيصبر على الشدة ، ويصابر نفسه عن الوقوع في الحرام ، أو أن يدخل مكسبه جزءًا من الحرام .

وما ذلك إلا لأن الحج عبادة ، والعبادة لا بد أن تكون مؤداة بطيبة نفس ، وطيبة مكسب ، وطيبة عمل : « فاللّه جل وعلا طيب ، ولا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيبًا » .

ثم يصبر المحرم عن أشياء محظورة عليه ، هي في حياته العادية أمور مستحسنة عنده ، وترغب فيها النفس ؛ فالطيب ولبس المخيط والأخذ من الشعر والظفر، ومقاربة النساء وغيرها من المحظورات ، يجد الإنسان مشقة في تركها ، ولكنه الصبر الذي يحرص الإسلام على تمكينه من أبنائه في أعمالهم وقلوبهم ، ويتمثل هذا الصبر في كل شعيرة من شعائره .

فالحاج يغالب نفسه ويدافعها عن الوقوع في هذه المحظورات ، وكلما حاولت نفسه الاقتراب دفعه الصبر وحال بينه وبين مقاربة هذا الأمر .

فالطيب والنساء قد قال فيهما رسول اللّه ﷺ : « حبب إليَّ من دنياكم : الطيب ، والنساء » . وهما مما أباحه اللّه للإنسان ، لكنهما في الإحرام وطيلة أيام معينة من الحج ، ما دام الحاج لم يتحلل التحلل الأكبر يعتبران من المحظورات اللاتي لا بد أن يصبر الحاج ويغالب نفسه عن عملها امتثالاً للأمر واجتنابًا للنهي ، مع أنها من مألوفات حياته ، والأشياء المألوفة التي تملك النفس ، وذلك لكي يخرج الحاج بدرس جديد ، وهو أنه بالصبر يتم به قهر النفس والتحكم فيها والتغلب على نوازعها، كما أنه لا بد من وضع هدف لذلك الأمر ليزيد النفس حماسة واندفاعًا ورغبة في العمل ومحافظة على الجهد ، والهدف في الحج هو الأجر الجزيل الذي وعد به الحج المبرور .

والمرأة تصبر عن الزينة والتجمل وهي مفطورة على هذا وجزء من كيانها وحياتها ؛ لأن في إحرامها تعويدًا لها على العمل الذي تستفيد منه في السيطرة على نزعات النفس ، وعدم الاستسلام لرغباتها .

وفي الإحرام للرجل والبقاء على هذا اللباس من قطعتين غير مخيطتين ، وبدون غطاء للرأس فترة طويلة هي المدة ما بين عقد الإحرام والتحلل الأصغر .

كل هذا فيه تعويد للنفس على التحمل ، وجبر لها على الصبر ، تلك الخصلة التي تجد النفوس مشقة في البداية حتى تتعود وتحتسب ، ثم يكون سجية يأخذ منه المسلم عبرة في تفقد أحوال إخوانه المسلمين وما يمسهم من كرب ومشقة ، فشعور المسلم بما وقع فيه أخوه من فقر وشظف عيش ، ومن عري وجوع ، ومن تعرض لأحوال الجوّ من قرٍّ وحر ، يجعله يجود عليهم ويتذكر أحوالهم دائمًا حسبما ارتسم في مخيلته عن هذا الموقف .

ذلك أن اتحاد الحجاج في لباس واحد ، وفي وضع واحد ، وفي مظهر واحد ، كل هذا مما يزيد النفوس ترابطًا والأخلاق تماسكًا ، والمجتمع تآلفًا .

كما أن ذلك مما يقوي فضيلة الصبر وينمي ركائزه في النفوس التي تتعود عليه ، وتآلف عمله حتى يكون سجية من سجايا النفوس المحببة ، التي يحرص الإسلام على تعويد أبنائه عليها لتكون من الطباع المألوفة ، كما يقول الشاعر العربي :

سجية تلك فيهم غير محدثة
إن الخلائق فاعلم شرها البدع

وفي عرفات ومنى حيث يشتد الحر في الصيف ، والقر في الشتاء ، تصبر النفوس التي تعودت السكنى في الأبهة والتنعم في الرياش والتكييف على السكنى في الخيام والشظف في الفراش ، وتحمل الغبار والأتربة ، وقد يفترش بعضهم الأرض الخشنة ، ويضطر للمسير على قدميه مع التعرض لأحوال الجو ليلاً ونهارًا من شمس محرقة وغبار وهواء وجوع وعطش ، بل قد يتعرض لأكثر من ذلك ، وهو هوام الأرض .

ولولا أن اللّه سبحانه وتعالى قد قيض لهذه المشاعر حكومة ساهرة على مصالح الحجاج ، باذلة بسخاء ما يوفر لهم الراحة والأمن والإضاءة ووسائل الهداية بأنواعها لرأى الحجاج ما رآه الألوف منهم في أحقاب ماضية من النهب والسلب والوباء والضياع والجوع والعطش وغير ذلك من ركام المشقات التي لا يحيط بها التعبير ، ففي الحج دروس كثيرة في الصبر ، وتعويد النفوس على الخشونة لتكون مستعدة وقت الحاجة ، وقد قال عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه : (اخشوشنوا ، فإن النعم لا تدوم) ، فالحاج والحاجة يتعودان الصبر من أعمال الحج وشعائره في أمور كثيرة مثل :

■ السير في المواصلات والتقيد بالأنظمة ، بل الاضطرار للسير على الأقدام وبمساحات لم تكن متعودة .

■ في الانصراف من عرفة وعدم المزاحمة والإضرار بالمسلمين ؛ لأن رسول اللّه ﷺ كان يقول في ذلك الانصراف : « عباد اللّه السكينة السكينة » .

وما السكينة التي يأمر بها الرسول الكريم ﷺ إلا مدخل من مداخل الصبر الذي يجب تعويد النفوس عليه ، وربطها به .

■ تحمل المشاق الكثيرة في جميع المواقف من البدء حتى الختام ، وكذا الازدحام والضنك وضيق المسكن .

■ الصبر على ما يمس البدن من جهد ، والأعضاء من تحمل ، والمال من نفقة ، والبطن من جوع وعطش .

وإذا تتبعنا الحاج في حركاته منذ أن يتحرك من بيته ، وحتى يعود إليه - إن شاء الله ظافرًا مقبولاً - فإنه في أعمال كلها تحتاج إلى الصبر ، وتتطلب منه التحمل ومغالبة النفس وإكراهها على ما لا تألفه ، مع بذل الجهد الذي لا يؤدى إلا بالصبر والمصابرة .

لكنه يستسيغ هذا ويرتاح إليه ؛ لأنه يمتثل أمر الله ، والله جل وعلا لا يكلف إلا ويعين ، ولا يكلف البشر بشيء فيه شر لهم ولا إضرار بهم ، بل بما يعود عليهم في مجتمعهم بالنفع ، وأنفسهم بالخير ، سواء ظهر لهم هذا أو خفي عليهم .

وهكذا يدرك الحاج أنه بصبره وتحمله قد خرج من الحج بدرس جديد ومفيد ، وخصال حميدة تغيّر نفسيته ، وتقوي معنويته ، وتفيد مجتمعه .

ومن هذا الدرس أيضًا : يستفيد الحاج معنى جديدًا لحكمة تكرار الصبر في كتاب الله الكريم في أكثر من تسعين موضعًا ، كما يدرك مكانة الصبر في عقيدة وسلوك الفرد المسلم والجزاء الذي أعده الله للصابرين بقوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

كما يدرك الحاج أيضًا مكانة الصبر في نيل المكانة التي يريد في حياته العملية مهما كان ذلك العمل من صناعة وتجارة وزراعة وعلم وغيرها ، وأنه لن يبلغ ما يرنو إليه ولن يصعد درجات النتائج المرضية ، إلا على الصبر ، ومع تجرع آلام الصبر ومرارته وذوق حلوه ومره .

فالإسلام يجعل سلم الآخرة الصبر على المكاره وعن المعاصي ، والتحمل في الطاعة ، كما يجعل سلم الدنيا لبلوغ النجاح والمطالب الصبر والتحمل ، والفرق بين طالب الدنيا وطالب الآخرة هو الإيمان والاحتساب والامتثال ، واعتبار ما جاء في شعائر الدين الإسلامي دروسًا مفيدة في هذا المجال ومعينة على الوصول إلى الهدف ، والحج في مقدمتها ، حيث يتمثل في التواضع في المظهر والمركب والملبس والمطعم وفي العمل والتقيد بالمواعيد ، وفي الاندماج مع الآخرين وتفقد أحوال المسلمين .

نسأل الله أن ينفع المسلمين بما عملوا ، وأن يجعل ما أخذوه من دروس في الحج منهج سلوك في حياتهم العامة دائمًا ، حتى يجعلوا من أنفسهم وأعمالهم نماذج فريدة في الدعوة إلى الله ، وتبصير الأمم الأخرى بمكانة الإسلام ودوره في تهذيب النفوس ، وصيانة المجتمعات عن الخطأ والزلل ، وحمايته لها من الجريمة وسيطرة الهوى .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

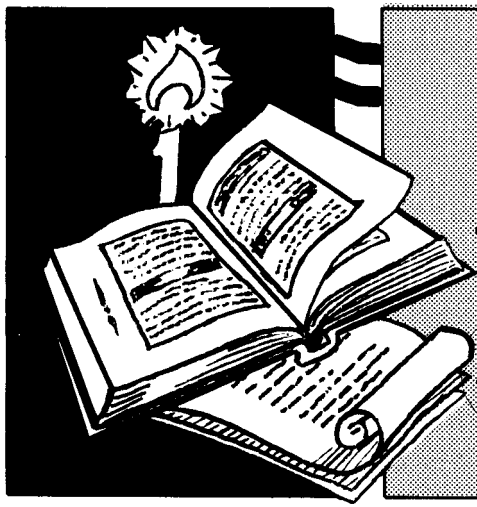

وصايا للطلاب والطالبات

بقلم د: محمد بن سعد الشويعر

يهتم سلفنا بالعلم ومدارسته ، وتأديب الطالب وتهيئته لهذا المركب الصعب ، قبل أن يهتموا بتعليمه وتربيته ، مثلما يحرصون على تدريب الخيول وترويضها ، قبل دخول المعركة ؛ لأن الطالب بدون الأدب لا يستطيع أن يأخذ العلم ، ولا أن ينفتح صدر المدرس لتعليمه ، فالعلم مركب صعب ، لا يتهيأ إلا لمن أراد الله له ذلك ، بعد تذليل وحسن قيادة للنفس .

ولذا روي عن بعض السلف ، وذلك من تقديره للمعلم قوله : (من علمني حرفًا كنت له عبدًا ..) ، ومع هذا فإن المعلمين يقدّرون الطالب الجاد ، ذا الخلق الحسن والسمت والوقار ؛ لأن هذه الصفات من أردية العلم ، فنراهم يأخذون بيده ، وينزلونه المكانة التي يستحقها ، ويشيدون به ، لما يترجّون منه من نفع وفائدة في مستقبل أيامه .

لمجالس العلم آدابٌ لا يقربها من لم يحسنها !!

والشافعي - رحمه الله - على جلال قدره ، وعلو منزلته في العلم ، روي أنه عندما ذهب للعراق لطلب العلم ، جلس في حلقة الحسن ، وكانت واسعة ، وعدد طلابها كثير ، فكان يكتب بيده في الأرض ، وقد لاحظ عليه بعض الطلبة ، فأشعروا الحسن وقالوا : إن الغلام الشامي يلهو ويعبث بأصبعه في الأرض ، وأنت تلقي الدرس ، فوضع عينه عليه ، وإذا هو كما قيل ، فاستدعاه يومًا بعدما ذهب الطلاب ليعاتبه ، وقال : إن حلقتنا تعتذرك ، وعليك أن تبحث عن غيرها ، قال : ولِمَ يرحمك الله ؟ قال : لأنك لم تتأدب بآداب طالب العلم ، وراقبتك تعبث ، وهذا مجلس علم ، يجب فيه الإنصات ، وحسن الأدب ؛ لأن لمجالس العلم آدابًا ، لا يقربها من لم يحسنها ، ويتخلّق بها .

فقال الشافعي : لم أكن عابثًا ، ولكني من حرصي أكتب لكي أحفظ ، وقد وعيت كل ما قلته في الأيام الماضية ، بل حفظته ، فقال : أسمعني شيئًا من ذلك ؟ فأسمعه ، فإذا جميع ما ظهر من لسان شيخه مخزونٌ في ذاكرته ، ولم ينس منه شيئًا ، فأعجب شيخه منه ذلك وكبر في عينه ، وقال : يا بني ، أنت مكانك هناك ، وليس في مؤخرة الصف الذي هو لصغار الطلاب والمبتدئين ، ثم أجلسه في مقدمة الحلقة .

العلم لا يناله مستح ولا متكبر !!

فالطالب والطالبة يجب أن يتخلق كل منهما بأخلاق الوقار وحسن السمت ، ولذا يقال : إن العلم

لا يناله مستح ولا متكبر . وروي عن الشافعي - رحمه الله - قوله : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعزّ النفس فيفلح ، ولكن من طلبه ببذل النفس وضيق العيش ، وخدمة العلماء أفلح .

يجب على طالب العلم أن يتحلى بصفات العلماء !!

أما الإمام مالك فيقول - رحمه الله -: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضربه الفقر ، ويُؤثَر على كل شيء ، وأقوال العلماء في الصفات التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم في نفسه ، وفي تواضعه كجزء من الأدب مع العلم ، وتقدير الشيوخ كثيرة ، وكلها تحثّ النفوس البشرية على الاستصغار والتواضع في طلب العلم ، وعدم التعالي ؛ لأن بالتواضع تنال المعرفة .

وقد حرص بعضهم على جمعها في نقاط ؛ ليسهل على طالب العلم أو طالبته إدراكها كمواد شبيهة بالمواد المقنّنة والمختصرة التي تسهل المقصد ، وترغّب في الاتجاه للعلماء ومزاحمتهم بالركب ، والتأدب في كل المواقف المعينة على الحصول منه بنصيب وافر : فهمًا وحفظًا وإدراكًا ، ثم أثرًا وتأثيرًا وقدوة صالحة ، حيث تخرج ثمرة العلم ، وأبرزها صاحب تذكرة السامع والمتكلم في أدب المتعلم في نفسه في عشر وصايا تعين طالب العلم إذا حرص عليها ، على أن يهيئ نفسه بعد توفيق الله بأن يأخذ من العلم بنصيب جيد ينفعه في نفسه ، وتستفيد منه أمته ، وهي :

الأولى : تطهير القلب عن خبث الصفات : وذلك بتنقيته عن كل غشّ ودنس ، وغل وحسد ، وسوء عقيدة وخلق ؛ ليصلح بذلك لقبول العلم ، وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه ، وحقائق غوامضه ، فإن العلم كما قال بعضهم : صلاة السرّ ، وعبادة القلب ، وقربة الباطن ، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة ، إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث ، فكذلك لا يصلح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديئها ، وإذا طُيب القلب للعلم ، ظهرت بركته ونما ، كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا ، وفي الحديث : ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)) . أخرجه البخاري ومسلم .

الثانية : حسن النية في طلب العلم ، بأن يقصد به وجه الله تعالى ، والعمل به وإحياء الشريعة ، وتنوير قلبه ، وتحلية باطنه ، والقرب من الله تعالى يوم القيامة ، والتعرض لما أعد الله لأهل العلم من رضوانه وعظيم فضله .

العلم عبادة من العبادات .. وقربة من القربات !!

يُروى عن أبي يوسف قوله : يا قوم ، أريدوا بعلمكم الله تعالى ، فإني لم أجلس مجلسًا أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أعلوهم ، إلا لم أقم حتى أفتضح .

والعلم عبادة من العبادات ، وقربة من القربات ، فإن خلصت فيه النية قبل وزكا ، ونمت بركته ، وإن قصد به غير وجه الله تعالى حبط وضاع ، وخسرت صفقته ، وربما تفوته تلك المقاصد ولا ينالها فيخيب قصده ويضيع سعيه .

العلم في الصغر كالنقش في الحجر !!

الثالثة : المبادرة إلى تحصيل العلم في أوقات الشباب ؛ لأن الشباب هو وقت فراغ الذهن ، وقوة الذاكرة والاستعداد للتحصيل ، وقديمًا قيل : العلم في الصغر كالنقش في الحجر ، ولا يغتر الإنسان بخدع التسويف والتأميل ، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها ، وعليه أن يقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة ، والعوائق المانعة عن تمام الطلب ، وبذل الاجتهاد ، وقوة الجد في التحصيل ، فإنها كقواطع الطريق .

الرابعة : القناعة بما تيسّر : وذلك بأن يقنع الطالب من القوت بما تيسر ، وإن كان قليلاً ، ومن اللباس بما يستر مثله ، وإن كان خلقًا ، فبالصبر على ضيق العيش ينال الإنسان العلم ، ويجمع شمل القلب عن متفرقات الآمال ، فيعينه الله حيث تتفجر فيه ينابيع العلم ، وتظهر عليه بوادر الحكمة ، وفي هذا يُروى عن الشافعي - رحمه الله -: لا يصلح

طلب العلم إلا لمفلس ، قيل : ولا الغني المكفي ؟ قال : ولا الغنى المكفي .

حرص الطالب على تقسيم أوقات ليله ونهاره !!

الخامسة : تنظيم الأوقات للتعليم والتعلّم ، وذلك بأن يحرص الطالب على أن يقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقي من عمره ، فإن بقية العمر لا قيمة له ، وآخر العمر هو سن العجز والكبر ، ويحسن الاهتمام بما يلي :

مراعاة أجود الأوقات للحفظ !!

● مراعاة أجود الأوقات للحفظ ؛ إذْ من المعلوم بالتجربة أن الأسحار هي أجودها للحفظ ، وللبحث : الإبكار ، وللكتابة : وسط النهار ، وللمطالعة والمذاكرة : الليل .

يُروى عن الخطيب البغدادي قوله : أجود الأوقات للحفظ : الأسحار ، ثم وسط النهار ، ثم الغداة ، قال : وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع .

● الاهتمام بأماكن الحفظ ، قيل : إن أجود أماكن الحفظ الغرف ، وكل موضع بعيد عن الملهيات ، كما قيل بأنه ليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق ، وضجيج الأصوات ؛ لأنها تمنع من خلو القلب غالبًا .

أعظم الأسباب المعينة على العلم !!

السادسة : أعظم الأسباب المعينة على العلم ، والاشتغال به ، والتركيز والفهم ، وعدم الملال : أكل القدر اليسير من الحلال ، قال الشافعي : (ما شبعت منذ ست عشرة سنة) ، وسبب ذلك أن كثرة الأكل ، جالبة لكثرة الشرب ، وكثرته مما يملأ المعدة ، فتجلب هذه الحالة النوم للإنسان ، والبلادة للطالب ، مع قصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم ، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية ، والتعرض لخطر الأسقام البدنية ، وفي الأثر : ((ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه ، فإن كان لا محالة : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه)) . وفي هذا قيل :

فإن الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب

ولكثرة الطعام آفات : إذْ لم يُر أحد من الأولياء والأئمة العلماء يوصف بكثرة الأكل ، ولا حُمِد به ، وإنما يحمد كثرة الأكل من الدواب ، التي لا تعقل ، بل هي مرصدة للعمل .

والذهن الصحيح أشرف من تبديده وتعطيله بالقدر الحقير من طعام ، يئول أمره إلى ما قد عُلِم ، ولو لم يكن من كثرة الطعام والشراب ، إلا الحاجة إلى كثرة دخول الخلاء ؛ لكان ينبغي للعاقل اللبيب ، أن يصون نفسه عنه ، ومن رام الفلاح في العلم وتحصيل البُغْية فيه ، مع كثرة الأكل والشرب والنوم ، فقد رام مستحيلاً في العادة .

ضرورة أخذ الطالب نفسه بالورع وتحري الحلال !!

السابعة : أن يأخذ الطالب نفسه بالورع في جميع شأنه ، ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وفي جميع ما يحتاج إليه ، هو وعياله ؛ ليستنير قلبه ، ويصلح لقبول العلم ونوره ، والنفع به ، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحل شرعًا ، مهما أمكنه التورع ، ولم تلجئه حاجة ، أو يجعل حظه الجواز ، بل يطلب الرتبة العالية .

كما أن عليه أن يقتدي بمن سلف من العلماء الصالحين ، في التورع عن كثير مما كانوا يفتون بجوازه ، وأحق من اقْتُدِيَ به في ذلك ، سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث لم يأكل التمرة التي وجدها في الطريق ؛ خشية أن تكون من الصدقة ، مع بُعْد كونها منها ؛ ولأن أهل العلم يقتدى بهم ، ويؤخذ عنهم ، فإذا لم يستعملوا الورع ، فمن يستعمله ؟

وينبغي لطالب العلم أن يستعمل الرخص في مواضعها ، عند الحاجة إليها ، ووجوب سببها ؛ ليقتدى بهم فيه ، فإن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه .. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

الثامنة : أن يقلل من المطاعم المضرّة ؛ لأنها من أسباب البلادة ، وضعف الحواس .

تقليل النوم مهم لطالب العلم !!

التاسعة : تقليل النوم مهم لطالب العلم ، ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات ، وهي ثلث الزمان ، فإن احتمل حاله أقل من ذلك فعل .

ولا بأس أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا أكل ، وذلك بتنزه في المتنزهات ، بحيث يعود إلى حاله ، ولا يضيع عليه زمانه ، ولا بأس بمعاناة المشي ، ورياضة البدن ، فقد قيل : إنه ينعش الحرارة ويذهب فضول الأخلاط ، وينشط البدن .

وبالجملة فلا بأس أن يريح نفسه إذا خاف ملاً ، وكان بعض الأكابر العلماء ، يجمع أصحابه في بعض أماكن التنزه ، في بعض أيام السنة ، ويتمازحون بما لا ضرر عليهم في دين ولا عرض .

اختيار الرفيق فى طلب العلم !!

العاشرة : اختيار الرفيق في الطلب : فينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده ، أو يستفيد منه ، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيّع عمره معه ، ولا يفيده ، ولا يستفيد منه ، ولا يعينه على ما هو بصدده ، فليتلطف في قطع عشرته ، من أول الأمر قبل أن تتمكن ، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها ، وفي الجاري على ألسنة الفقهاء : الدفع أسهل من الرفع .

والصديق أو الرفيق الذي يحتاج طالب العلم إلى صحبته ، يحسن أن تكون فيه الصفات التالية : الصحبة والدين والتقى والورع ، والذكاء وكثرة الخير ، وقلة الشر ، وحسن المداراة ، وقلة المماراة ، وممن يذكر عنه النسيان ، ويعين عند الذكر ، ويواسي عند الحاجة ، ويصبر عند الضجر ، والحكماء يحذرون من صحبة الأحمق ، وقد قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل
وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى
حليمًا حين وافاه
يقاس المرء بالمرء
إذا ما هو ما شاه

وأهم من ذلك كله : الحرص على ترك المعاصي ، فإن العلم نور من الله ، ومن أقوى أسباب الأخذ تخلُّق الطالب والطالبة بالأخلاق الحميدة ، والبعد عن معاصي الله ، والتزام طاعة الله في كل أمر .

ورع العلماء :

جاء في كتاب ((رياض النفوس)) : أن الفقيه أبا علي الحسن بن نصر السوسي قد حدث ابنه محمد عن ورعه قال : كان أبي جالسًا يومًا في المسجد ، وحوله طلبة العلم يحدثهم عن طيب المكسب ، وكانت زوجتي تسكن مع أبي في داره ، فقالت : لما كان يوم من الأيام بعد صلاة العصر والشيخ في المسجد ، قُرع الباب علينا ، ففتحنا فإذا بثلاثة من الخدم على رءوسهم طيافير - نوع من الأطباق مغطاة - فقلنا لهم : ما هذا ؟ فذكروا أن ذلك من عند رجل من الفقهاء بسوسة جليل القدر ، قال : فأخذنا الأطباق ، وتركناها على حالها مغطاة ، حتى دخل الشيخ من المسجد وقت إفطاره ، فقدّمنا له فطوره الذي يفطر عليه ، ثم قدمنا له الأطباق ، وكشفناها له ، فإذا فيها أنواع من الحلوى : قباط ، وفالوذج ، ومشاش ، فقال لزوجته : من أين هذا ؟ أليس قد قلت لكِ : لا تقبلي من أحد شيئًا ولا هدية ، ولا تأخذي إلا ما يأتي به عمرون ، فإنه بقطاعي يشتري ، فقالت له زوجته : وجّه به إليك فلان الفقيه . فقال لها : فلان الفقيه ، متولي أحباس سوسة ؟ وإن كنت أعلم أنه من أهل الدين والفضل والعلم ، فأنا ممن لا آكل له طعامًا ، ولا لغيره ، وغضبَ على زوجته غضبًا شديدًا إذْ عصته ، وقبلت الهدية ، فقالت له زوجته : فادفعها لولدك محمد ، يأكله هو وعياله ، فقال لها : سبحان الله ، وتستفتيني لمن أعطيه ، وتدخل عليَّ الدواخل ، أنتِ أولى به وبحسابه غدًا ، اعملي به ما شئت ، فأبتَ من ذلك زوجته ، وتورّعت ، وأخذتُ الأطباق بما فيها ، وجعلت مَن حملها لها ، ومضت بنفسها معها إلى دار الرجل ، واعتذرت له عن الشيخ ، فأخذها منها ، وغضبَ لذلك ، وقال لها : قولي للشيخ الحسن بن نصر : يا أبا علي ، أتعلم في أموالنا حرامًا ؟ وغضب على الشيخ مدة ، ثم رجع إليه بعد ذلك ، وكانت وفاة الشيخ سنة إحدى وأربعين ، وثلاثمائة من الهجرة ، وكان الرجل الذي وجه إليه بالأطباق عبد الله بن حمّود السلمي . (٢ : ٣٩٥) .

والله من وراء القصد .

بيـــن أمّ .. وأمّ !!

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر

الأم من حيث التكاثر والتوالد ، وامتداد الفرع من الأصل مهمتها واحدة في بني آدم ، باختلاف معتقداتهم ونحلهم ، بل تشاركهم في هذا الكائنات الحية الأخرى ، ولكن من حيث المهمة التي أرادها الله من الإنسان المميز بالعقل ، والمكلف بالشرع تختلف الأعمال ، وتتباين الأحاسيس .

فالأم المسلمة أبانت لها شريعة الإسلام ما لها من حقوق وواجبات لدى أبنائها ، وما ألزمتهم تعاليم هذا الدين نحوها من واجبات بنصوص شرعية لا تقبل الجدل ، ولا يتطرق إليها الشك ، ويدركها كل مسلم حريص على الامتثال والتطبيق .

ولن نتطرق لذلك في هذا الحديث ، ولكن تأتي المقارنة بين مكانة الأم المسلمة ، وحقوقها وواجباتها ، بما هو سائد في المجتمعات غير المسلمة الذي وصفهم الله بقوله : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وتبرز المقارنة عندما تُقاس بحقيقة من الواقع السائد في بعض المجتمعات تلك ، حيث تتميز تعاليم الإسلام بدور يجب إبرازه لأولئك القوم بما يلامس أوتار قلوبهم .. في مثل هذه الحكاية الواقعية .

فقد التقيت في إحدى سفراتي لأمريكا بطالب مسلم ملتزم ، حكى قصة ملخصها قوله : لقد كنت أسكن في إحدى الولايات الأمريكية أثناء دراستي ، وكانت تجاورني في السكن امرأة تجاوزت الستين ، بل تزيد ، تعيش بمفردها ، ولا أرى لها عملاً تذهب إليه ، فخلتها مقطوعة الصلة ، وفي أحد الأيام كعادتي عدت من الجامعة ، وما كدت أقترب من باب شقتي حتى رأيت العجوز تسقط على الأرض بلا وعي أو حراك ، ولم يكن ذلك بفعل جانٍ أراه ، أو معتدٍ له مآرب .

وقفت مليًا أتفكرّ : ماذا أعمل تجاهها ؟ والعاطفة قد خفّت عندهم ، وطغى عندهم بدلها الماديات ، وهل أمضي في سبيلي وكأنني لا أدري عما يدور حولي ، وبعد إجالة النظر تحرك الجانب الديني في شعوري ، حيث ربّانا الإسلام على ذلك عاطفة وعملاً .

فاقتربت منها وتحسست ، فإذا أنفاسها تتلاحق ، وقلبها ينبض ، فطلبت سيارة الإسعاف التي نقلتها لأقرب مستشفى حيث أعطيت علاجًا أعاد إليها الحيوية ، فأفاقت لترى نفسها في سرير أبيض ، يحف بها ممرضات وطبيب ، وهذا الغريب المسلم الذي هو شخصي ، وكانت دهشتها أكبر ، واستغرابها أشدّ ، عندما أشعرها الطبيب عن حالتها الصحية ، وأن الواقف أمامها - الذي هو أنا - هو الذي رعاها واهتم بها ، وقد زاد استغرابه عندما أخبرته عني قائلة : إن هذا الشاب عربي مسلم ، يجاورها في السكن منذ سنتين ، ولا تعرف حتى اسمه ، بينما هي أمريكية كاثوليكية من أصل أوروبي ، ولا ترابط بينهما ، ولا تعارف أكثر من ذلك . ثم سألها الطبيب ، ليضمن حق المستشفى وأتعابه هو : هل لك أولاد ؟ وما وضعهم المالي والاجتماعي ؟؟!

لكنه استغرب عندما قالت : إن لي ثلاثة أولاد وبنتين ، لكنني لم أرهم منذ خمس سنوات ، ولا يمدونني بسنت واحد ، ومما زاد الأمر غرابة ، عندما أخبرتُ بعناوينهم وأعمالهم ؛ فإذا واحدة من البنات في النيابة المجاورة

لسكن الأم ، وواحد من الأبناء يسكن ويعمل في محل تجاري في نهاية الشارع الذي تسكنه ، والآخر أستاذ بالجامعة التي يدرس بها الطالب المسلم .

وأخبرت أنها لا تحمل تأمينًا صحيًا ، ووضعها الصحي مهزوز بعد أن أودعها أولادها الملجأ المخصص للعجائز ، فخرجت منه بما لديها من رصيد ادّخرته ، وقد بدأ في النّفاد ، ثم أخبرت عن حالتها الصحية التي تمر بها دائمًا كلما نقص دواء السكر الذي تتعاطاه .

لم يخجل الطبيب في هذا الموقف ، وهي تحكي وضعها المالي أن يطالبها بسداد التكاليف المترتبة ، وشدّد الأمر عندما طلبت منه الإمهال ريثما تدبر الأمر ، عندها تحركت نخوة هذا المسلم مرة أخرى ؛ لأنها جذور الإسلام المتمكنة تتحرك في المواقف المؤثرة ، فتناول قسيمة التكاليف ، كتعبير مباشر عن استعداده لتحمل النفقات ، وتسديد الحساب بدون تردد .

ثم عاد ليصطحب هذه المرأة المسنة ليرعاها في بيتها ، ويهتم بشئونها ، ويقدم لها ما ينقصها من العلاج والدواء كما يفعل الأبناء البررة ، وتعاون معها في البحث عن أولادها وإعلامهم عن حالها .

وقد آلمه أن أولادها استقبلوا خبر مرضها بعدم الاكتراث أو الاهتمام ، ولم يعبروا عن مودتهم لها ولا أعماله نحوها ، ولا بكلمات المجاملة أو الاستعداد لزيارتها .

عاد إلى نفسه وحَمد اللّه على أن هداه للإسلام بما فيه من قيم

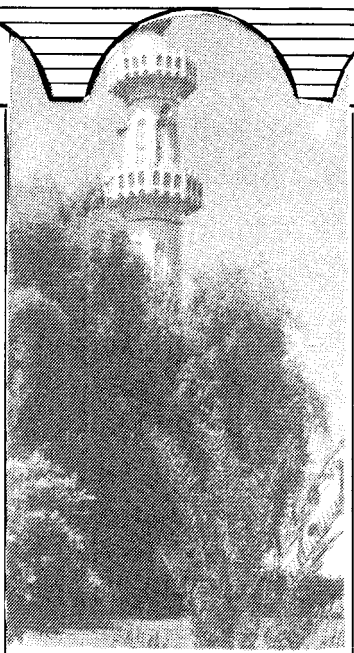

ومثاليات ، وبما غرس في أبنائه من أخلاق ، ودعوة للبر بالوالدين ورعايتهم وإكرامهم ، وتمنى أن تنطوي الأيام ليُنهي دراسته ، ويفارق هذا المجتمع الماديّ بتفككه وخوائه العقدي والفكري .

أخبر جارته العجوز بكل ما وجد من أولادها ، وكلّه حسرة تعصر كيانه ، وأحاسيس تستولي على مشاعره ، لكنها استقبلت الأمر بعدم المبالاة ؛ لأن هذا واقع مجتمعهم ؛ ولأنها فاقدة لقاعدة ترسيخ الولاء للوالدين ، وحب البر فيهم . وفاقد الشيء لا يعطيه . ولكنها قالت له : وأنت ما الذي حملك على هذا العمل الإنساني ، هل لأنك كطالب تفكر في النجاح ، أم أنك تعمل في جمعية خيرية تعطيك أجرًا على هذا العمل .. أم ماذا ؟؟!!

فقال لها : لا هذا ولا ذاك ، ولكنها تعاليم ديني ، ومبدأ عقيدتي ، ثم شرح لها ذلك ، وعن مكانة المرأة في الإسلام منذ الولادة إلى نهاية مرحلة الشيخوخة ، وحقها على أبنائها ، وحقوق الجار والاهتمام بشئونه ، وكانت تنصت إليه بشغف واستغراب ، ثم قالت : لم اسمع بمثل هذا الدين .. حبذا لو انتبه الناس لعلهم يستنيرون به ؛ لأن فيما قلته أشياء تنقصهم كثيرًا ، ثم بكت وقالت : من أجل هذا عشتم متحابين متآلفين ، أما نحن فيبغض بعضنا بعضًا ، مهما كانت القرابة ، ولا رابطة إلاّ المصلحة المادية ..، وبعد تنهد وحسرة تنبئ عن ألم مكبوت قالت : هل يمتد عمري لكي أرى المجتمع الأمريكي ، وقد ارتدى هذا اللباس الذي يضفيه دينكم على مجتمعه ؛ ليتبدل في نظرته للحياة واهتمامه بالأسرة والمجتمع ، وخاصة كبار السنّ أمثالي الذين يزهد فيهم أولادهم .

تأثر هذا الشاب بما سمع منها ، وقال : أرجو أن يعرف هذا أبناء بلادي ، وإخواني في الدين ، في كل مكان ، وأن تهتم بذلك الأمهات فيكون فيهن خلقًا ، حتى يرضعنه أولادهن لتنمو معه مداركهم ، ومتى نمت الروح عند الأطفال كسجية وخلق ، فإنها سوف تتأكد وتكبر مع الزمن إن شاء اللّه ، فيسعد المجتمع ، وتصير تعاليم الإسلام ، وما تدعو إليه من خير ومحبة طبعًا في أعمالهم ، من حيث الرحمة والتعاطف والتراحم .

أما إذا تهاونّا في أوامر ديننا ، فإننا نصبح مثلاً حيًا في بيئتهم ينالنا ما ينالهم ، ونتألم مثلما يتألمون بعد أن ضاع منّا الرجاء من اللّه .

هــــل العلــــم حكــــرٌ؟!

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر
رئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية بالسعودية

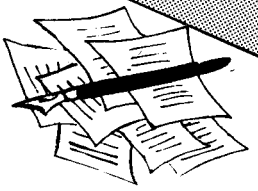

يتوقع بعض أصحاب التخصصات العلمية المادية أنهم بعد نيل الشهادات التي تحددها الدراسات الجامعية في تلك التخصصات قد وصلوا إلى الحدّ الأعلى في مجالهم ، وما علموا أن هذه الشهادة ما هي إلا جواز سفر يفتح لمن يريد التوسع والإفادة الباب ، للطريق الموصل لبغيته ، أما إذا لم يدرك هذا المفهوم فإنه يصبح كالماء الراكد ، الذي يجعله طول المكث غير صالح للاستعمال ، وعديم الفائدة بعد أن صارآسنًا ،

فالمهندس الزراعي ، والخبير المعماري - مثلاً - قد يعجبان بما نالا من مستوى تعليمي في مجال كل منهما ، وقد يدفع العجب إلى أن يزهو كل منهما بنفسه ، على من يراه دونه في هذا العلم ، ومقياسه الشهادة الذي وجد نفسه وهو على مقاعد الدراسة أو مختبرات العمل ، يطبق عمليًّا ، أو يناقش ميدانيًّا ، أمام نظريات ورموز لم يبق له أن أدركها من قبل ، ولم يعرفها من حوله من بني جلدته ، فاعتقد بذلك أن جهل من حوله بهذا التخصص قد أعطاه مكانة فوق الآخرين ، بل يدفعه اعتقاده هذا إلى أن يطلب ممن حوله في مجاله ، التقيد بما أخذه نظريًّا بدون مناقشة أو مساءلة على أنه الحق الذي لا مراء فيه . ذلك أن مثل هذا المتعالي ، من ذوي الشهادة الحديثة ، قد يفاجأ بما لم يكن في الحسبان ، فالمهندس الزراعي ، قد يخطئه فلاّح لا يقرأ ولا يكتب ؛ لأن هذا الأخير أخذ علمه من التجربة الميدانية واستفاد من أخطاء غيره ؛ ليقول للمهندس الزراعي : لا نوافقك على ما تقدم من نظريات . فالواقع العلمي غير ذلك .. ونحن الفلاحين أدرى منك - مع طول المعايشة والعمل - بما ينفع الشجرة وما يضرّها ، من كمية في الأسمدة ، ونوعية ما تعالج به في مرضها ، وكيفية التعامل مع الثمرة ، في شتى مراحل نموها ، وعن موعد البذور ونوعيتها ... وهكذا في دقائق هذه المهنة .

والمهندس المعماريّ قد يردّ على نظرياته ، مقاول أو بناء ، لم يدخل المدرسة ، ولم يعرف دقائق المقاييس الهندسية ، ليبين له عيوبًا في عمله ، وأخطاء في مقاييسه وتقديراته ؛ لأن كلاً من الفلاح والبناء اللذين لم ينتظما في المدارس ،

العلم الحقيقي هو الذي يكشف الغمة عن القلوب .. وتنقشع به الغشاوة عن العيون ، هو ما قال الله وما قال رسول الله ﷺ ؛ لأنه علم يربط المخلوق بالخالق .

ولم يدريا ما هي كليات هذا الاختصاص ، قد أدركا سرّ المهنة من التجربة ، وبطول الممارسة ، وقديمًا قيل : من تردد في شيء أعطي حكمته ، فيجد كل من هذين المهندسين نفسيهما في ساحة العمل ، أمام مجابهة وتحديات ، تخفف من النشوة التي مرت بهما عند الفرح بالاجتياز ونيل شهادة التخصص ، ليعود العاقل والحريص على النجاح منهما إلى رشده ، وليعلم أن الشهادة ما هي إلا دليل يوجه للطريق الذي يجب أن يسلكه ، حتى يربط نفسه علميًا ووقتًا دراسيًا بموضوعه ، ومن ثم يدرك أن العمل في مجاله هذا طريقه إلى مقارنة النظريات بالعمل ، والتبسط في الأخذ عن الآخرين ميدانيًا ، حتى يطور نفسه ، ويمكن حصيلته العلمية بالرسوخ والتأصيل ، ذلك أن الإنسان يتجدد علمه بتجدد ما حوله ، ولا يجب أن يحقر نفسه من أن يتعلم ممن هو دونه ، وهكذا في مجالات العلوم الكثيرة والعديدة جدًا ، حتى إنه مع التطور العلمي كان للتخصص الواحد فروع عديدة ودقيقة ، بحيث لا يستطيع المرء إحصاءها عدًا ، أو تدوينها كعناوين ، فكيف بالإحاطة بها ، ومعرفة خفاياها ، وما علم البشر كلهم من أول الدنيا إلى آخرها في علم الله إلا بمثابة نقطة في بحر ، ومما يؤصل هذا ما يلمسه القارئ من مؤتمرات متخصصة ، وما يقدم فيها من أبحاث ونتائج التجارب ، وما تخرجه الجامعات في الرسائل العلمية ، من كتب تنبئ عما توصل إليه الباحث من نتائج في تخصصه : نظرية أو عملية ، ميدانية أو من المراكز العلمية والبحث ، أو تجربة في مختبر تبرز نتائجه الدقيقة بالمجهر ، أو بالزراعة الجرثومية ، أو بالاختبارات العديدة ، أو غير ذلك من مصطلحات ، ذلك أن علوم الدنيا تتم بالممارسة ، وقد يُخطِّئ الثاني ما قبله ، ولذا تسمى تجاربهم نظريات ، بخلاف العلوم الشرعية التي هي عن الله وعن رسوله ﷺ ، فإنها حقائق لا جدال في نتائجها ، وصدق الله إذ يقول وقوله الحق : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، فإذا كانت العلوم الحديثة ، وما تتوصل إليه من مستويات ، بدأ أصحاب الاختصاص فيها يدركون أن الإنسان كلما ازداد تقدمًا

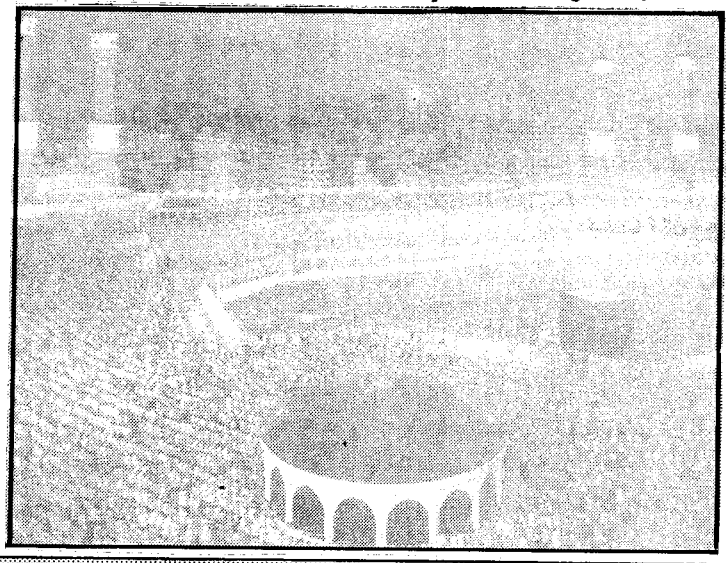

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ويجب أن يطلبه الإنسان من صغره إلى أن يلقى ربه ؛ لأنه مسئول عنه ، كيف أخذه ، وماذا عمل فيه .

علميًا ، وزادت شهاداته وتجاربه كلما شعر بأنه يجب أن يتضاءل ولا يغتر ؛ لأن آفة العلم التعالي والغرور ، ومن توقع نفسه يعرف كل شيء ، فإنه لا يعرف شيئًا .

ولذا نراهم يحاولون كبح جماح بعض المغرورين بتقييدهم بأهمية مواصلة المتابعة بالتجارب والدراسة لتجديد المعلومات وتطويرها في مجالهم ؛ لأن لكل تخصص اليوم دوريات ونشرات ومراكز بحث ومؤتمرات وندوات ، كل هذا من أجل متابعة الجديد في هذا التخصص ، ومع هذا وذاك تقويم لكل شيء يقدم من بحث أو دراسة أو تجربة ، حتى يرتفع المستوى ، ويعرف الجديد الذي قدم في هذا الميدان[1] .. كل هذا بقصد من المهتمين بهذه المعارف الحديثة ، من أجل الوصول إلى المستوى الأعلى في التخصص ، والتجديد فيه .. وملاحقة التطور العلمي الذي تتنافس فيه المصانع .

وقد برز هذا الأثر في التكنولوجيا العلمية ، وفي تسارع المبتكرات والمخترعات وتطويرها ، بحيث أصبح ما كان جديدًا وطريًا بالأمس ، قديمًا ومتخلفًا اليوم ، حتى الأنظمة التي تُسَيِّر حياتهم يجدون فيها ثغرات فتُعَدَّل وتبدل ويأتي لها تغيرات وملاحق .

ولعل هذا التسابق وتلك المسارعة - والله أعلم - فيما يحسه الإنسان بعصرنا الحاضر ، وسرعة التجديد في كل صنعة ، والمبادرة مع كل اختراع .. من مبادئ دلالة هذه الآية الكريمة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] .

فالعلماء الماديون بتسابقهم وتعلقهم ، يريدون بذلك نتيجة ما يجلبه لهم علمهم من شهرة وثراء ، ولذا فإنهم - إلا من رحم الله - ليس لهم هدف أخروي من اهتماماتهم هذه ، ولا مما توصل إليه النتائج ، وهؤلاء من تعنيهم الآية الكريمة : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] . وهذا من حكمة الله ولإعمار هذا الكون .

لكننا معاشر المسلمين نتساءل : هل خُلق الإنسان لهذه العلوم ، والسير وراء كل جديد فيها فقط ، ومن ثم الاهتمام بخفاياها ودقائق تخصصاتها ، وهل هؤلاء العلماء حقًا الذين عناهم الله بقوله الكريم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ [فاطر : ٢٨] ؟!

إن مكانة طالب العلم المسلم ، تبرز في إدراك الدور الواجب فهمه ؛ من مضمون دلالة المعنى لهذه الآية الكريمة ، وهو إنما يخشى الله الخشية الكاملة ، المنبعثة من العلم اليقيني ، هم العلماء العارفون بشرع الله ، الفاهمون لتعاليم دينهم معرفة حقيقية ، كما قيل : من كان بالله أعرف كان منه أخوف .

فالإنسان خلق لعبادة الله ، وأداء حقه سبحانه على العباد ، وفق ما فرض عليهم ، وقد جاء في الحديث القدسي : « ابن آدم ، خلقتك لأجلي فلا تلعب ، وخلقت كل شيء لأجلك فلا تتعب » .

وطالب العلم المسلم كلما ازداد توسعًا في علومه الشرعية ، كلما اتسعت مداركه ، وكبرت في قلبه تعاليم دين الإسلام ، وعظمت مكانتها في نفسه ، فلذلك استحق العلماء المتبحرون في علمهم الوصف بالخشية ؛ لأنهم عارفون بالله وبآياته معرفة حقيقية ، وعارفون بما جاء عن رسول الله ﷺ ، وحريصون بأن يُسَيِّروا بذلك العلم أمور حياتهم ، وتعليم الناس المهمة التي خلقوا من أجلها ، وهي عبادة الله وحده ، حيث أخبر الله عن هذه المهمة التي يجب أن يعيها العامل ليزيد من علمه ، بما يوصلها وينبه الغافلين إليها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦- ٥٨] .

فالعلم الحقيقي الذي يكشف الغمة عن القلوب ، وتنقشع به الغشاوة عن العيون ، هو ما قال الله وما قال رسول الله ﷺ ؛ لأنه علم يربط المخلوق بالخالق ، ويبصّر العبد بالنور الذي يرشده إلى مرفأ السلامة .

فهذا العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ويجب أن يطلبه الإنسان من صغره إلى أن يلقى ربه ؛ لأنه مسئول عنه ، كيف أخذه ، وماذا عمل فيه ؛ ولذا فإن على كل من الذكور والإناث إمضاء العمر في هذا

---

(١) ليستفيد بعضهم من بعض .

السبيل متعلمًا ومسترشدًا ، وعاملاً بما علم ، ومتواضعًا في الطلب ، وحريصًا على تعليم ما أفاء الله عليه ، ليزداد كل يوم معرفة ، وليعبد الله عن يقين ، وليبصر الجاهل بما لديه من علم ، حتى يكون من أهل الذكر ، الذين أمر الله بسؤالهم .

وإذا كانت آثار العلم الشرعي ، تبرز في العبادة بأركان الإسلام ، وأركان الإيمان ، وركن الإحسان ، فإن هذا العلم يقود حامله إلى التقوى ، وهي مراقبة الله في السرّ والعلن : اعتقادًا وعملاً ، وهذا الفهم يؤصل العلوم الأخرى المادية ، بل إنها إذا اقترنت بالعلم الشرعي تحولت إلى عبادة ، وكلما ازداد فيها عمقًا وتبحرًا ، كلما ازداد يقينًا وقوة في إيمانه ؛ لأن عجائب قدرة الله ، ومظاهر عظمته ، تتضح رؤيتها أكثر بزيادة الكشف عن خفايا العلوم المادية ، كما قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

فالطبيب عندما يربط العلم البشري ، بقدرة الله ، فإنه يرى العجائب والغرائب في جسم الإنسان ، ويدرك أن عظمة الله وقدرته ، تبرز أكثر في دقائق صنع الله ، وفي خلايا هذا الجسم ، وأنسجته العديدة الغريبة ، ومهما ازداد الطبيب علمًا بأي تخصص في بدن ابن آدم ، كلما انفتحت أمامه الغرائب وراءها قصور هذا الإنسان وعجزه عن إدراك ما في نفسه ، وصدق الله في قوله الكريم : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] ؛ ذلك أن الطبيب الماهر يتسح أمامه بحر العلوم الواسع ، في كل خطوة يتقدم فيها ، أو مهمة بارزة يحققها .. ومفهوم خفايا الجسم ليس قاصرًا على الطبيب ، بل إن علماء النفس بتخصصاتهم ، وأهل علم الاجتماع بنظرياتهم أيضًا ، تكبر أمامهم هذه المعرفة من عمق دلالة هذه الآية الكريمة ، وما أجمل أن يكون علماء الشرع قد خاضوا علوم الدنيا ؛ ليكون من هذه الطريق المُمَهِّد للدعوة الإسلامية .

ولذا فإن كل علم مادي ، عندما يوضع في ميزان المعادلة ، فإنه لا بدّ من تمكينه بالعلم الشرعي ، الذي يرسخ مكانة العلوم المادية ، ويجرها بزمام المعرفة إلى إراحة القلوب ، ومن ثم إدراك الثمرة لأي علم بحلاوة النتائج ، المقرونة مع حلاوة الإيمان .. وهذا هو الحدّ من العلم ، حيث تتحقق مصلحة الدنيا ، بمصير الآخرة ، فيكون العلم الدنيوي وسيلة لا غاية ، ويكون العلم الشرعي هو الغاية الموصلة إلى الهدف ، فإذا تلازما تحققت الحسنيات ، وإذا رأيت صاحب العلم فاعلم أنه قد علا في المرتبة العلمية ؛ لأن زيادة العلم تتضامن معها نزعات النفس .

الأدب مع العلم :

ذكر النوري في كتابه الموسوعي « نهاية الأرب » : أن المأمون قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو ، فلما كان يومًا أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى النعل يقدمانه للفراء ، فتنازعا أيهما يقدمه فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا فقدماها ، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجه إلى الفراء ، فاستدعاه فلما دخل عليه قال : من أعز الناس ؟ قال : ما أعرف أعز من أمير المؤمنين .

قال : بلى ، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه ولياً عهد المسلمين ، حتى رضي كل واحد منهما أن يقدم له فردًا ، قال : يا أمير المؤمنين ، لقد أردت منعهما من ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها ، وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ركابهما حين خرجا من عنده .

فقال له بعض من حضر : أتمسك لهذين الحدثين ركابهما وأنت أسنّ منهما ؟ فقال له : اسكت يا جاهل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

فقال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لومًا وعتبًا ، ولزمتك ذنبًا ، وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما ، وبين عن جوهرهما ، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيرًا عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه ، ووالده ، ومعلمه للعلم ، وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما . [« نهاية الأرب » (٦ : ٢٧٦)] .

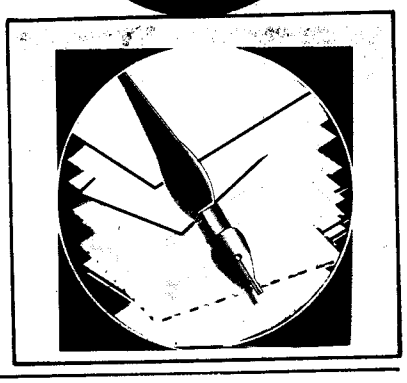

أدب العالِم في درسه

بقلم د : محمد بن سعد الشويعر
رئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية السعودية

لما رأيت اهتمام كثير من الإخوة التربويين بهذا الموضوع الذي طرقته في مقالات سابقة ، تشجعت بالعودة إليه إفادة لنفسي ، وتلبية لرغبات كريمة ، مازجًا تلك الآراء الإسلامية بما أراه محققًا للفائدة ؛ إذْ لمَّا كانت التربية الحديثة ، لا تستند في نظرياتها وتجاربها ، إلا على ما يظهر للمفكرين منهم من الآراء والتجارب حول المعلم ، وما يحسن تهيئته من أجل المهمة الكبيرة المناطة به ، وما يراه التربويّ من كيفية في توجيه تلاميذه ، وإيصال المعلومات إليهم ، بما يقارب نموهم العقلي والجسماني .

وكثير من أبناء المسلمين يفتتن بنظريات أولئك ، وما وضعوا من أسس يتوالى عليها أصحاب النظريات والآراء ، حتى إن الأول يأتي بعده من ينقض آراءه ، ويغيّر الأسس التي سار عليها في بناء نظريته وتقوية رأيه .

وما ذلك إلا أن تلك الآراء مستمدة من عقيدة أولئك القوم ، ومنطلقاتهم التي تختلف عما لدى المسلمين ، لأن كل مفكر منهم يخضع وجهات نظره لمفهومه الذي يترجح عنده ، وفكره الذي يقوى في عقله ، ومعلوم أن البشر سمة أعمالهم القصور ، وديدن جهودهم الرّضوخ للتجربة الممتزجة بتقوية العقل على النص ، ولذا فإن ما يتراءى لفلان منهم ، تختلف نظرة علاّن نحوه ، ومن هنا عرفت الأعمال التي تفتق عنها فكرهم باسم نظرية ، ولم تسم حقيقة في كثير من التجارب العلمية ، ومنها الأعمال : التعليمية والتربوية ، ومعلوم أن بين الحقيقة والنظرية فرقًا كبيرًا ، فالنظرية قابلة للتعديل والتبديل ، والحقيقة قطعية الثبوت .

ولذا فإن التربوي المسلم يجب أن يكون مَعِينُه الذي يستمد منه في استقاء المعلومات ذا اتجاهين : اتجاه يزيد حصيلته ، وينمي طاقة تفكيره ، وهذا يستمده من المسلك الذي سار عليه أولئك ، مقرونًا بالتمحيص والمتابعة ، مسترشدًا بسابق خبرتهم ، وقديم تجاربهم ومتابعتهم ، فيأخذ منهم الحسن ويترك ما لا يتلاءم مع بيئته ، واتجاه آخر وهو المهم يرسخ الاتجاه الأول ، وينقيه من الشوائب ، وهو المستمد من شريعة الإسلام بمصدريها : كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ؛ لأن ما يأتي عنهما لا يقبل الجدل ، ولا الإخضاع للعقل ونظرياته ، ولا التجارب ومفاهيمها ، ألم يقل سبحانه بعد بيان خطأ المجادلين في شرع اللّه : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] . فعمر بن الخطاب لما رأى الناس بدأوا يتأثرون

بالجدل ، والخضوع للنقاش العقلي حول القضايا العقدية والتعبدية ، ومناقشة الكيفية والكُنْه قال : اللهم إيمانًا كإيمان العجائز ..، وعندما بدأت الأسئلة المتعنتة من الخوارج ، وأصحاب الأهواء المتأثرين بفلسفات الأمم المغلوبة ، وموروثاتهم العقلية تبرز ، أجاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن سؤال يشكك طَارِحُه في الأوامر الشرعية قائلاً : لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين أولى من المسح على ظاهرهما . ولكن نأخذ الأمر عن الله وعن رسوله ونسمع ونطيع .

ومن هنا ندرك أن العقل يجب أن يخضع للدين ، وتكون مهمة الإرشاد إلى ما يمكنه من النفوس ، ومن هنا فإن كثيرًا من التربويين المسلمين ، الذين درسوا في ديار الغرب ، مطالبون بعدم أخذ نظرياتهم قضية مسلّمة ، بل يجب أن يأخذوا من قشورهم ، ما يُغلّفون به لباب معتقدهم الإسلامي ، ليكون من هذا المزج تربية تتواءم مع أسس دين الإسلام ، وركائز معتقداته .

والساحة الإسلامية وجهود أبنائها لم تكن خالية ، بل تطرق لهذا المجال كثير من علماء المسلمين وأجادوا في طرحهم ، منهم ابن جماعة الكناني المتوفى عام ٧٣٣هـ ، الذي نسير معه خطوات في أسس التربية المستمدة من قاعدة الإسلام ..، فهو يقول في أدب العالِم في درسه : عليه أن يراعي اثني عشر نوعًا :

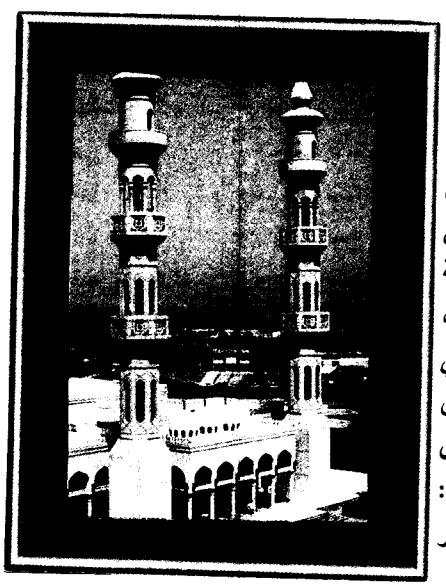

الأول : التهيئو للدرس : فإذا عزم على مجلس التدريس تطهر من الحدث والخبث ، وتنظف وتطيب ، ولبس أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه ، قاصدًا بذلك تعظيم العلم ، وتبجيل الشريعة ، فقد كان مالك إذا جاءه الناس بطلب الحديث اغتسل وتطيب ، ولبس ثيابًا جددًا ، ووضع رداءه على رأسه ، ثم يجلس على منصة ، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ ، وقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

الثاني : الدعاء قبل الخروج إلى الدرس ؛ فإذا خرج من بيته دعا بالدعاء الصحيح عن النبي ﷺ ، وهو : ((اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل ، أو أزل أو أُزل ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يُجهل عليَّ ، عزّ جارك ، وجل ثناؤك ولا إله غيرك)) . ويجلس مستقبل القبلة إن أمكن بوقار وتواضع وخشوع متربعًا أو غير ذلك مما لم يكره في الجلسات ، ولا يجلس مُقْعيًا ولا منتصبًا فيها غير مطمئن ، ولا رافعًا إحدى رجليه على الأخرى ، ولا مادًا رجليه أو إحداهما من غير عذر ، ولا متكئًا على يده إلى جنبه وراء ظهره .

وعليه أن يصون بدنه عن الزحف والتنقل عن مكانه ، ويديه عن العبث والتشبيك بها ، وعينيه عن تفريق النظر من غير حاجة ، ويتقي المزاح وكثرة الضحك ، فإنه يقلل الهيبة ، ويسقط الحشمة ،

كما قيل : من فرح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به . ولا يدرس في وقت جوعه أو عطشه أو همه أو غضبه ، أو نعاسه أو قلقه ، ولا في حال برده المؤلم وحرّه المزعج ، فربما أجاب أو أفتى بغير الصواب ؛ لأنه لا يتمكن عند ذلك من استيفاء النظر .

الثالث : توقير الأفاضل في الدرس ؛ وذلك بأن يجلس بارزًا لجميع الحاضرين ، ويوقر أفاضلهم بالعلم والسن والصلاح والشرف ، ويرفعهم على حسب تقديمهم في الإمامة ، ويتلطف بالباقين ويكرمهم بحسن السلام ، وطلاقة الوجه ، ومزيد الاحترام ، ويلتفت إلى الحاضرين التفاتًا قصدًا ، بحسب الحاجة ، ويخص من يكلمه أو يسأله ، أو يبحث معه على الوجه عند ذلك بمزيد التفات إليه ، وإقبال عليه ، وإن كان صغيرًا أو وضيعًا ، فإنّ تَرك ذلك من أفعال المتجبرين المتكبرين .

الرابع : ويبدأ درسه بالاستعاذة باللّه من الشيطان الرجيم ، ويسمي اللّه تعالى ويحمده ويصلي على النبي وعلى آله وأصحابه ، ويترضّى عن أئمة المسلمين ومشايخه ويدعو لنفسه وللحاضرين ولوالديهم أجمعين .

الخامس : وإذا تعددت الدروس قدم الأشرف فالأشرف ، والأهم فالأهم ، فيقدم تفسير القرآن ثم الحديث ، ثم أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم المذاهب ، ثم الخلاف أو النحو .

السادس : ومن آداب الدرس : أن لا يرفع صوته زائدًا على قدر الحاجة ، ولا يخفضه خفضًا لا يحصل معه كمال الفائدة ، ولا يسرد الكلام سردًا ، بل يرتله ويرتبه ويتمهل فيه ، ليفكر فيه هو وسامعه ، وقد روي أن كلام رسول اللّه ﷺ كان فصلاً ، يفهمه من سمعه ، وأنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا لتفهم عنه .

السابع : أن يصون مجلسه عن اللغط ، فإن اللغط تحت اللغط ، وعن رفع الأصوات واختلاف جهات البحث ، فقد كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فتعدى إلى غيرها يقول : نفرغ من هذه ثم نعود إلى ما تريد . ويتلطف في دفع ذلك من بدايته قبل انتشاره وثوران النفوس ، ويذكر الحاضرين بما جاء في كراهية المماراة ، لا سيما بعد ظهور الحق ، وأن مقصوده بالاجتماع ظهور الحق وصفاء القلوب ، وطلب الفائدة ، وأنه لا يليق بأهل العلم تعاطي المناقشة والشحناء ؛ لأنها سبب العداوة والبغضاء ، بل يجب أن يكون الاجتماع ومقصوده خالصًا للّه تعالى ، لتتم الفائدة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، ويتذكر قوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال : ٨] ، فإن ذلك مفهمٌ أنّ إرادة إبطال الحق ، أو تحقيق الباطل صفة إجرام ، فليحذر منه .

الثامن : أن يزجر من تعدى في بحثه ، أو ظهر منه لَدَدٌ فيه ، أو سوءُ أدب ، أو ترك الإنصاف بعد ظهور الحق ، أو أكثر الصياح بغير فائدة ، أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين ، أو الغائبين ، أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه أو نام ، أو تحدث مع غيره ، أو ضحك أو استهزأ بأحد من الحاضرين ، أو فعل ما يخل بأدب الطالب في الحلقة ، هذا كله بشرط أن لا يترتب على ذلك مفسدة تربو عليه .

التاسع : أن يلازم الإنصات في بحثه ، وخطابه ويسمع السؤال من موردِهِ على وجهه ، وإن كان صغيرًا ، ولا يترفع على سماعه فيحرم الفائدة .

وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده ، أو تحرير العبارة فيه لحياءٍ أو قصور ، ووقع على المعنى ، عبَّر عن مراده وبيّن وجه إيراده ، ثم يجيب بما عنده ، أو يطلب ذلك من غيره ، ويتروى فيما يجب به ردّه . وإذا سُئل عما لم يعلم قال : لا أعلم ، أو : لا أدري ، فمن العلم أن يقول : لا أعلم ، وعن بعضهم : لا أدري نصف العلم .

وقيل : ينبغي للعالِم أن يورث أصحابه : لا أدري ؛ لكثرة ما يقولها . قال محمد بن عبد الحكيم : سألت الشافعي — رحمه اللَّه — عن المتعة : أكان فيها طلاق أو ميراث أو نفقة تجب أو شهادة ؟ فقال — رحمه اللَّه -: واللَّه ما ندري .

ويجب أن يعلم أن قول المسئول : لا أدري لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة ، بل يرفعه ؛ لأنه دليل عظيم على عظم محله ، وقوة دينه ، وتقوى ربه ، وطهارة قلبه ، وكمال معرفته ، وحسن تثبته ، وقد روينا معنى ذلك عن جماعة من السلف ، وإنما يأنف من قول : لا أدري من ضعفت ديانته ، وقلّت معرفته ؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين ، وهذه جهالة ورقة دين ، وربما يشهر خطؤه بين الناس فيقع فيما فرّ منه ، ويتصف عندهم بما احترز عنه ، وقد أدب اللَّه تعالى العلماء بقصة موسى مع الخضر ، عليهما السلام ، حين لم يردّ موسى عليه السلام العلم إلى اللَّه تعالى ، لما سُئل : هل أحد في الأرض أعلم منك ؟

العاشر : أن يتودّد لغريب حضر عنده ، ويبسط له ، لينشرح صدره ، فإن للقادم دهشة ، ولا يكثر الالتفات والنظر إليه استغرابًا له ، فإن ذلك مما يخجله ، وإذا أقبل بعض الفضلاء ، وقد شرع في مسألة أمسك عنها حتى يجلس ، وإذا جاء وهو يبحث في مسألة أعادها له ، أو مقصودها .

الحادي عشر : جرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس : واللَّه أعلم . وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب ، أو : واللَّه ولي التوفيق .

لكن الأولى أن يقال قبل ذلك كلام يشعر بختم الدرس كقوله : وهذا آخره ، أو : ما بعده يأتي إن شاء اللَّه تعالى . ونحو ذلك ؛ ليكون قوله : واللَّه أعلم ، خالصًا لذكر اللَّه تعالى ولقصده معناه .

ولهذا ينبغي أن يستفتح كل درس بـ ﴿ بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴾ ، ليكون ذاكرًا للَّه تعالى في بدايته ، وخاتمته .

والأولى للمدرس أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة ، فإن فيه فوائد وآدابًا له ولهم ، منها : عدم مزاحمتهم ، ومنها إن كان في نفس أحدهم بقايا سؤال سأله ، ومنها عدم ركوبه بينهم إن كان يركب ، وغير ذلك ، ويستحب إذا قام أن يدعو بما ورد الحديث به : ((سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك)) . أخرجه الترمذي .

الثاني عشر : أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له ؛ لأن التقدم لمعالي الأمور قبل إتقان أصولها وضبط طرقها عجل وشهوة نفسية ، توجب لصاحبها الفضيحة ، دنيا وأخرى ، قال ﷺ : ((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)) . أخرجه

البخاري ومسلم ، وعن الشبلي : من تصدّر قبل أوانه ، فقد تصدى لهوانه ، ولبعضهم في تدريس من لا يصلح :

تصدّر للتدريس كل مُهوسِ
جهولٍ يُسمى بالفقيه المدرّسِ
فحقٌ لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيتٍ قديم شاع في كل مجلسِ
لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كلُّ مُفلِسِ(١)

شجاعة العلماء :

جاء في كتاب « معالم الإيمان » أن القاضي عبد الرحمن المعافري هو أول مولود في الإسلام بعد فتح إفريقية ، وبعدما كبر شارك في الجهاد ضد الإفرنج ، فكان يقول : أسرني طاغية الإفرنج أنا وجماعة من أصحابي ، فبينما نحن في حبسه إذ غشيه عيد فبعث إلينا بأصناف الطعام وأحسن البناء ، فاتصل ذلك بامرأته — وكانت نفيسة عنده — فمزقت ثيابها ونشرت شعرها وقالت للملك : إن العرب قتلوا أبي وأخي وزوجي ، وأنت تفعل بهم الذي رأيت ، فغضب وقال : عليّ بهم ، فصرنا بين يديه سماطين ، فأمر سيافًا أن يضرب عنق رجل بعد رجل ، حتى قرب الأمر مني ، فحركت شفتي ، وقلت : اللّه ، اللّه ، اللّه .. لا أشرك به شيئًا ، ولا اتخذ من دونه وليًا — ثلاثًا — وأبصر فعلي فقال : قدّموا شمّاس العرب — يريد عالمهم — فقال لي : ما قلت ؟ فأعلمته ، فقال لي : ومن أين علمته ؟ فقلت : نبينا محمد أمرنا بهذا ، فقال : وعيسى أمرنا به في الإنجيل ، وأطلقني ومن معي .

وقال حاتم بن عثمان : كنت عنده والكآبة بادية عليه ، حتى أتاه شاب ومعه مخلاة فيها بصل ، فأسر إليه كلامًا فأسفر وجهه وتبسم ، فقال لغلامه : جئنا بالفول الذي طبختموه البارحة ، فجاءه به ، فقال : أقرب أبا عثمان ، فقلت : لا ، قال : ولِمَ أظننت ظنًا ؟ قلت : نعم ، فقال : أحسنت يا أبا عثمان ، إذا رأيت الهدية دخلت دار القاضي فاعلم أن الأمانة قد خرجت كُوَى الدار ، ليس هو هديه ، إنما هو مولاي أتى بهذا البصل في ضيعتي ، فقلت له : إني رأيتك مغمومًا ، فلما أتاك غلامك هذا ، تطلقت وتبسمت وأسفر وجهك ؟ فقال : إني أصبحت فذكرت بُعدَ عهدي بالمصائب ، فخفت أن أكون قد سقطت من عين اللّه ، فلما أتاني هذا الغلام ، ذكر لي أن أكفأ عبيدي وأقومهم بضيعتي قد توفي ، فزال عني بعض الغم واسترحت .

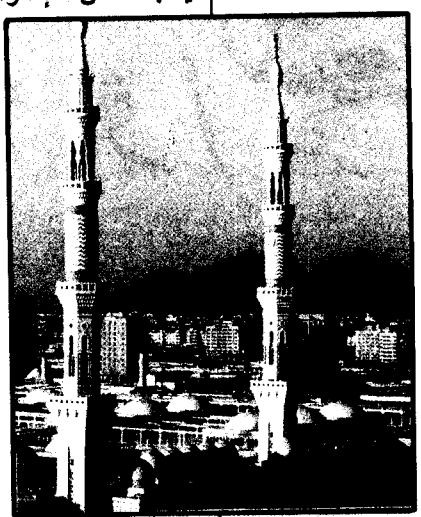

وفي ولاية يزيد بن حاتم على القيروان عزل نفسه عن القضاء وكسر خاتمه ورحل إلى تونس وتوفي بها ، وقيل سبب وفاته : إنه أكل سمكًا وشرب عليه لبنًا . [١: ٢٣٣] .

وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) « مختصر تذكرة السامع » (٢٦) .

السرّ.. وحفظه !!

بقلم د.
محمد بن سعد الشويعر

لا يوجد إنسان ليس له سرّ يريد التحفظ عليه وعدم الاطلاع عليه ، حتى الأطفال لهم أسرارهم ، والأسرار التي تكون بين الناس ، سواء كانوا أفرادًا أو جماعات ، ما هي إلا عهودًا ومواثيق ، أخذ اللّه على الناس المواثيق بالوفاء بها ، وأدائها على وجهها ، يقول سبحانه : ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣] ، والسرّ أو العهد ، عندما يفضي به واحد لآخر ، سواء كان سرًا أسريًا ، أو سرًا يتعلق بالعمل وأمن الأمة ، أو سرًا من أسرار المجتمعات مهما كان نوعه وغايته ، فإن هذا السرّ يعتبر أمانة من الأمانات التي يجب المحافظة عليها ، وعهدًا يسأل عنه أمام اللّه سبحانه يوم القيامة وماذا عمل فيه.، هل أذاع هذا السرّ الذي عُهد إليه المحافظة عليه ، واؤتمن على عدم إشاعته ، حتى ينتهي السبب الذي استحفظ من أجله ، على هذا الأمر ، أم حافظ عليه وصانه ، ولم يكن غربالاً كما قال الحطيئة .

يقول أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي : الملوك تحتمل كل شيء من أصحابهم ، إلا ثلاثًا : إفشاء السرّ ، والتعرّض للحُرَم ، والقدح في الملك ، وكان يقول : سرّك من دمك ، فانظر من تملّكه .

وإذا كان المال أمانة يحافظ الناس عليها بكل ما يستطيعون ، ويتعادون ويتصادقون من أجله ، ويتوثّقون بالكتابات والوعود والأيمان ، ثم بالشهود ؛ خوفًا من ضياع شيء منه ، يمكن تعويضه أو الاطلاع عليه ، فإن الأسرار بين الناس أغلى من ذلك وأمكن ، لأن فيها خصوصيات ، وفيها معايب أو مصالح قد يفضي إشاعتها إلى نتائج ضارة ، وفيها خصوصيات للدولة ، تتعلّق بأمنها .

ولذا فإن الواجب اختيار الأشخاص في دينهم أولاً ، لأن من حفظ دينه حفظ سرّه ، ومن واظب على أداء شعائر دينه كاملاً اهتم بحفظ ما أودع من أسرار ، وما يقع تحت يده من أمور يجب عدم إذاعتها ، حتى ولو لم يؤكد عليه المحافظة عليها ، لأن العمل أمانة من الأمانات العظيمة ، وما في العمل من مجريات هي عهود يجب المحافظة عليها .

وحذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه كان أمين سرّ النبي ﷺ ؛ لأن الإنسان لا بدّ أن يكون له من يفضي ببعض أسراره ، ليحمل عنه همها ، وليعينه في تلافي آثارها ، وتلمس المخارج الحسنة لهذه الأسرار ، وقد يكون من الأسرار ما يثقل كاهل صاحبها ، فيريد أن يخفف العبأ عن نفسه ، فيختار الصدوق الأمين ، ومن لديه الحكمة والرأس الحصيف ، لتبليغه ببعض الأسرار ؛ ليكون شريكًا

○ كان رسول الله ﷺ يحث أمته على كتمان السر ، بفعله وقوله ؛ لما في الإشاعة - لما يجب إسراره - من مضارّ عديدة للناس ، وعلى سلامة الدول وأمنها بصفة خاصة

○ الحياة الزوجية ما هي إلا أسرار بين الزوجين ، خاصة ما يدور بينهما ؛ تحفظها حيطان المنزل ، ويحكمها أبواب المنزل ، وعلى كل واحد من الزوجين أن يراعي عدم نشرها

معه ، ومحافظًا على هذا العهد ، الذي رآه جديرًا بحمله . يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجّع

فحذيفة علّمه رسول الله ﷺ أسماء المنافقين في المدينة ، وكان من ضمن حراس رسول الله ﷺ ولحماية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في مسيرته قافلاً من غزوة تبوك ، وعرف الأشخاص الذين أرادوا المكيدة برسول الله ﷺ في مضيق الجبل .

ولمكانته فقد جاء إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسترشدًا وسائلاً بالله خوفًا من-أن يكون من المنافقين ، وهذا من ورع عمر رضي الله عنه ، وعدم تزكيته لنفسه ، فقال لحذيفة : سألتك بالله ، هل عدّني رسول الله ﷺ منهم ؟ قال : لا ، ولن أزكي أحدًا بعدك .

وفي هذا الجواب نراه يسترشد بحديث عكاشة بن محصن ، في الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ؟ فأجابه ﷺ قائلاً : « أنت منهم » . فقام آخر بنفس الطلب ، فردّ عليه الصلاة والسلام بقوله : « سبقك بها عكاشة » .

وفي هذا حفظ لسرّ يجب كتمانه ؛ لأنه زكاه ولم يخبره بأحد من المنافقين ، مخافة أن يسأل غيره ، فيقع الإحراج في الجواب ، فكان كلام حذيفة ، من باب سدّ الذريعة ؛ لإقفال الباب بأدب جمّ ، وهذا من أدب النبوة الرفيع الذي أخذه الصحابة عن رسول الله ﷺ ؛ لأنه رضي الله عنه أخذ هذا المقياس ، وخشي أن يتكاثر عليه الناس ، فيذيع سرّ رسول الله ﷺ الذي استودعه إياه ، وهذا ما يجب أن يهتم به كل مسلم في السرّ الذي وقع أمامه ، ويعاهد نفسه على المحافظة عليه ، حتى ينتهي وقته أو يذيعه مصدره الذي كان يحافظ عليه ؛ استرشادًا بهذا الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيّمت بنته حفصة ، قال : لقيت عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فعرضت عليه حفصة ، فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ؟ قال : سأنظر في أمري ، فلبثت ليالي ، ثم لقيني فقال : قد بدا لي ألاّ أتزوج يومي هذا ، فلقيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ؟ فصمت أبو بكر رضي الله عنه ، فلم يرجع إليّ شيئًا ، فكنت عليه أوجد مني على عثمان ، فلبثت ليالي ، ثم خطبها رسول الله ﷺ ، فأنكحتها إياه ، فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وجدت عليّ ، حين عرضت عليّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئًا ؟ فقلت : نعم . قال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك ، فيما عرضت عليّ ، إلا أني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ ،

ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها .

وهذه النماذج تعطينا أدب صحابة رسول اللّه ﷺ في الحرص على حفظ سرّ رسول اللّه ﷺ حتى لو لم يقل لهم احفظوا هذا السرّ ؛ لأن تعاليم الإسلام التي رسخت في قلوبهم ، تدعو لذلك ، وتقرع أسماعهم آيات في كتاب اللّه ، وأحاديث رسول اللّه ﷺ ، فطبقوّا ذلك عملاً ، واهتموا به منهج حياة ، تعلموه فنقلوه لمن بعدهم ، وليت كل مسلم يدرك ذلك ليكون فيه قدوة لغيره .

فأبو بكر رضي اللّه عنه ، حفظ سرّ النبي الكريم ﷺ ، حتى انتهى وقت الحفظ ، بزواج الرسول ﷺ من حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، رضي اللّه عنها وعن والدها .

والحياة الزوجية ما هي إلا أسرار بين الزوجين ، خاصة ما يدور بينهما ، تحفظها حيطان المنزل ، ويحكمها أبواب المنزل ، وعلى كل واحد من الزوجين أن يراعي عدم نشرها ، وقد جاء التشريع الإسلامي في المصدر الثاني وهو السنة المطهرّة ، زاجرًا عن إفضاء ذلك السر ، سواء كان قوليًا أو فعليًا ، أو صفات في أحد الزوجين ، تختلف عمّا هو معهود في الإنسان السوّي ، مما يعتبر عيبًا خِلْقيًا أو خُلُقيًا ، ولم يجز الفقهاء رحمهم اللّه إشاعة شيء من ذلك للآخرين ، إلا ما أُوجبَ إظهاره : إخبارًا أو تقريرًا ، لدى المحاكم الشرعية ، حيث يأخذ القاضي ذلك قرينة شرعية في الحكم ، إيجابًا أو سلبًا .

روى مسلم في « صحيحه » حديثًا عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن من أشرّ الناس عند اللّه يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى المرأة ، وتفضي إليه ، ثم ينشر سرّها » .

ويدخل في هذا من وقع في معصية ، وستره اللّه برحمته ، ولم يبرز للناس من هذا الأمر شيء ، ثم قام هذا الفاعل ، ليكشف ستر اللّه عنه ، ويشيع الأمر المستور بستر اللّه ، ويقول : فعلت في يوم كذا ، وفي مكان كذا ؛ كذا وكذا ، فيصبح وقد ستره اللّه بظلال من لطفه سبحانه ، في بيته وفي عمله ، ليكشف ستر نفسه ، ويفضح من عيوبه ، ما سترته عناية اللّه ، فكان بعمله هذا مجاهرًا بمعصيته ، كاشفًا بسرّ ستره اللّه عن العيون حقبة من الزمن .

وكان رسول اللّه ﷺ يحث أمته على الكتمان ، بفعله وقوله ، لما في الإشاعة - لما يجب إسراره - من مضارّ عديدة للناس على اختلاف منازلهم وأعمالهم في هذه الحياة ، وعلى سلامة الدول وأمنها بصفة خاصة ، حيث يتربص بها الأعداء ، ويبثون العيون لالتقاط بعض المعلومات المفيدة لهم ، فكان الواجب أن يقفل المرء لسانه عن النطق ، وعينه عن النظر ، وأُذنه عن السماع ، عن ذلك الأمر السرّي الخاص ، فكأنه لم ير ، ولم يسمع ، ولذا يجب أن لا ينطق فيه بكلمة مهما كانت ، حتى لا تفسّر بإفشاء السرّ .

فعن فعله عليه الصلاة والسلام ، فقد كان إذا أراد الذهاب لغزوة ورىً بغيرها ، حتى يبعد الخبر عن العدو .

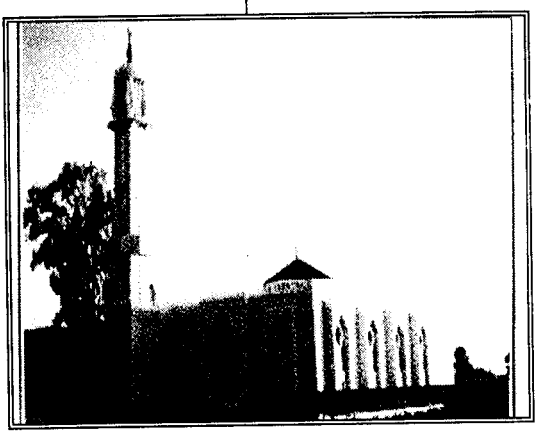

وعن قوله وأمره عليه الصلاة والسلام ، فقد روي عنه قوله : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

والخليفة الأموي

عبد الملك بن مروان ، يعتبر من دهاة العرب ، دخل عليه الشعبي يومًا فقال له : يا شعبي ، جنّبني خصالاً أربعًا : لا تطريني في وجهي ، ولا تجربَنَّ عليَّ كذبة ، ولا تغتابنّ عندي أحدًا ، ولا تفشين لي سرًّا .

فكان من الحكمة : إن الشيء الذي تكتمه عن عدوك ، ألا تظهر عليه صديقك .. لأن السرّ ما دام بين جوانحك ، فهو ملكك ، فإذا ظهر منك صار ملكًا للآخرين ، كما يقال في الحكمة : الكلمة ما دامت في صدرك فأنت تملكها ، فإذا أظهرها لسانك ملكتك .

ومعلوم أن أغلى ما عند الإنسان المال ، فإذا كان يخاف عليه اللصوص أخفاه ، وأحكم خزانته بكل ما يستطيع ، فكيف به يمكنّ عدوه من نفسه بإفشائه سره إليه ، وإظهار ما في قلبه له ، أو يظهر هذا العدوّ على أخيه أو الدول أو الأسرار المؤتمن عليها ، ولكن بعض الناس يضيق صدره ، ولا يتحمل ما فيه من سر ، حتى لو كان سرًّا خاصًّا في إفشائه مضرة ، يترقبها العدو والحاسد ، ويشيعها الثرثار وصاحب الغيبة والنميمة .

وكاتم السر كما يقال : له من كتمانه إحدى خصلتين وفضيلتين : أما الخصلة الأولى : الظفر بحاجته . والثانية : السلامة من شرّ هذا السرّ ، وأما الفضيلتين : فإن من أحسن فعليه أن يحمد اللّه ، وله سبحانه المنة عليه بحفظ هذا السرّ ، ومن أساء فليستغفر اللّه عز وجل ، وله سبحانه الحجة عليه .

فأين من بعض المسلمين في هذا الزمان إدراك تلك المفاهيم التي حثّ عليها رسول اللّه ﷺ وسبر غورها رجال الرعيل الأول من هذه الأمة ، وطبقوها عملاً ، لأن الواجب الاهتمام بمكانة السرّ ، حيث نرى بعض الأمور بين الناس في مجتمعاتهم سرية ، وفي الأعمال التي يحتاط فيها بكتابة سري ، أو شخصي خاص ، فيؤكد على ذلك بأشياء كتابية وغير كتابية ، حرصًا على مراعاة الأمانة في حفظ هذا السرّ ، فإذا به يذاع ويتناقله الآخرون ، بل أصحاب الأهواء وضعاف العقول يضيفون على ذلك ما يخدم أهواءهم ، وما ذلك إلا من ضعف الوازع الإيماني في القلب ، واستخفاف بالعهد الذي أخذه اللّه على عباده ليفوا به ، ويهتموا برعايته ؛ لأنهم مسئولون عنه ، فهو أمانة ، والأمانة ليست في المال والعروض ، ولكنها في كل شيء .

والتساهل فيه وعدم رعاية حق هذا السر ، من ضياع الأمانة ، الذي حذّر رسول اللّه ﷺ من التهاون بها ، وأخبر : بأنها أول ما يفقد من الدين بقوله الكريم : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة » .

وإن من يتحدث بكل ما سمع ورأى ، يعتبر في نظر الناس ، غربالاً لا يمسك شيئًا ، ولا يطمئن إليه أحد في معرفة أي أمر ذي بال ، سواء كان سرًّا يؤكد عليه بعدم نشره ، أو لم يؤكد عليه ، وإنما يلتقطه من الألسن حيث يحذره الناس ، ويتكتمون عنه في الأمور الصغيرة قبل الكبيرة ، مهما كانت منزلتها . وينطبق عليه الحديث : « كفى بالمرء إثمًا أن تُحدث بكل ما سمع » .

ومثل هذا المذياع لكل أمر ، الذي لا هم له إلا التنقل من مكان إلى مكان ، ليسمع ويذيع ، لا يوثق بما يقول ، ولا يرغب فيه في أي مجلس ، بل يتكتم الناس عنه ، في حديثهم ، ويتناذرون منه عندما يدخل مكانًا هم فيه ،

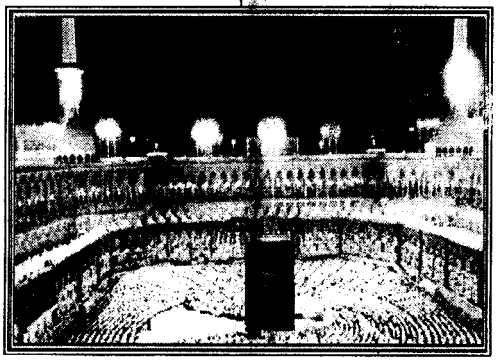

ليخفوا عنه ما يتحدثون فيه ، ولو كان حديثهم لا سرّ فيه ، ولا تحفظ فيما يتداولونه بينهم ، لا لشيء إلا أنه عرف عنه عدم حفظ أمانات المجالس ، وعهد عنه التباهي عند الآخرين ، بما يقوله من كان حاضرًا المجلس . وفي هذه الحالة فإن كتمان السر يعقب صاحبه سلامة ؛ لأن الصبر على كتمانه أيسر من الندم على إفشائه ، وما أحسن ما روي عن زياد في كتمان السر : لكل مستشير ثقة ، ولكل سرّ مستودع ، وإن الناس قد أبدعت بهم خصلتان إذاعة السرّ وترك النصيحة ، وليس موضع السر إلا أحد رجلين : رجل أخرويّ يرجو ثواب اللّه ، ورجل دنياوي له شرف في نفسه وعقل يصون به حسبه ، وهما معدومان في هذا العصر .

حسن التربية :

ذكر ميمون بن مهران أن عمر بن عبد العزيز قال له : إن ابنى عبد الملك ، قد زُيّن في عيني ، وأنا متّهم لنفسي فيه ، وأخاف أن يكون هو ابن فيه قد غلب على علمي به ، وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده ، فأته وأسبره ثم ائتني بعلمه ، ثم انظر هل ترى منه ما يشاكل النّخوة ، فإنه غلام حدث ، ولا آمن عليه الشيطان ، قال ميمون : فخرجت إلى عبد الملك حتى قدمت عليه ، فاستأذنت ودخلت ، فإذا غلام ابن ستّ عشرة سنة جالس على خشبة بيضاء ، أحسن الناس تواصفًا ، وإذا مرافق بيض ، وبساط شعر ، فرحّب بي ثم قال : قد سمعتُ أبي يذكرك بما أنت أهله ، وإني لأرجو أن ينفع اللّه بك ، وقد حسبت أن يكون قد غرّني من نفسه حسن رأيي والدي فيّ ، وما بلغتُ من الفضل كل ما يذكر ، وقد حذرت أن يكون الهوى قد غلبه على علمه ، فأكون أحدًا فاته .

قال ميمون : فعجبت من اتفاقهما ، فقلت له : أعلمني من أين معيشتك ؟ قال : من عطائي ومن غلة زراعة اشتريت من ظهر يد ممن ورثها عن أبيه ، فوهبها لي فأغناني بها عن فيئ المسلمين ، فقلت : فما طعامك ؟ قال : ليلة لحم وليلة عدس وزيت وليلة خلّ وزيت ، وفي هذا بلاغ ، قلت له : أفما تعجبك نفسك ؟ فقال : قد كان فيّ بعض ما كان ، فلما وعظني أبي بكتاب منه ، بصّر في نفسي وما صغّر من شأني ، وحقّر من قدري ، فنفعني اللّه عز وجل بذلك ، فجزاه اللّه خيرًا .

فقعدت ساعة أحدّثه وأتسمّع من منطقه ، فلم أر فتًى كان أجمل وجهًا ، ولا أكمل عقلاً ولا أحسن أدبًا منه .

قال ميمون : فلما كان آخر ذلك أتاه غلام فقال : أصلحك اللّه قد فرغنا ، فسكت فقلت : ما هذا الذي فرغ منه ؟ قال : الحمّام أخلاه لي . فقلت : لقد كنت وقعت مني كل موقع حتى سمعت هذا ، قال : فاسترجع وذُعر ، وقال : وما ذاك يا عمّ يرحمك اللّه ؟ قلت : الحمّام لك ؟ قال : لا . قلت : فما دعاك إلى أن تطرد عنه غاشيته ، كأنك تريد بذلك الكبر ، فتكسر على صاحب الحمام غلّته ، ويرجع من أتاه خائبًا ، قال : أما صاحب الحمّام ، فإني أرضيه ، وأعطيه غلّة يومه . قلت له : هذه نفقة سرف خالطها الكبر ، وما يمنعك أن تدخل الحمّام مع الناس ، وإنما أنت كأحدهم ، قال : يمنعني من ذلك أن أرى عورة مسلم ، ورعاعًا من الناس ، يدخلون بدون أزر ، فأكره رؤية عوراتهم ، وأكره أن أجبرهم على أزر ، فيضعون ذلك مني على حدّ هذا السلطان ، الذي خلعنا اللّه منه كفافًا ، فعظني يرحمك اللّه عظة أنتفع بها ، واجعل لي مخرجًا من هذا الأمر ، فقلت له : ادخله ليلاً ، فإذا رجع الناس إلى رحلهم ، خلالك الحمام . قال : لا جرم لا أدخله نهارًا أبدًا ، ولولا شدة برد بلادنا هذه ما دخلته أبدًا ، فأقسمت عليه لتطوينّ هذا الخبر عن أبي . فإني أكره أن يظل عليّ ساخطًا ، ولعل الأجل يحول دون الرضا منه .

قال ميمون : فأردت أن أسبر عقله ، فقلت : إن سألني : هل رأيت منك شيئًا ؟ تأمرني أن أكذبه ؟ قال : لا معاذ اللّه ، ولكن قل : رأيت شيئًا فعظمته عنه ، وسارع إلى ما أردت من الرجوع ، فإنه لا يسألك عن التفسير ؛ لأن اللّه عز وجل قد أعاذه من بحث ما ستر .

قال ميمون : فلم أر والدًا قطّ ، ولا ولدًا قطّ - رحمة اللّه وبركاته عليهما - مثلهما . [المحاسن والمساوئ للبيهقي : (١:٢٥٢)] .

هل يحسّ الأموات بالأحياء ؟!

بقلم : د . محمد بن سعد الشويعر

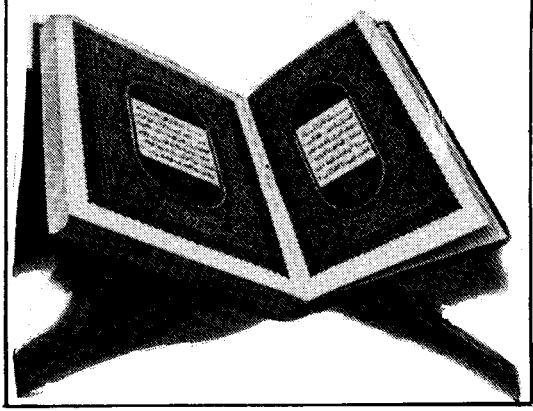

آيات في كتاب الله الكريم وحادثة حصلت في غزوة بدر الكبرى ، مع شواهد شرعية أخرى ، جعلت علماء الإسلام يرون الصواب في سماع الموتى واستئناسهم بسلام وزيارة الأحياء لهم ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ في مقارنة بين إسماع الموتى للنداء ، وإسماع الصم الدعاء لدين الله المُدْبِرِينَ عن تأمله وتدبره ، يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم : ٥٢] ، فنداء الله ، والدعوة إلى دينه الحق لا يصغى إليه ، إلا من وقر الإيمان في قلبه وأراد الله هدايته . يقول ابن كثير في « تفسيره » : يقول الله تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصَم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يُسْمِع الأموات أصوات الأحياء ، إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه . [« تفسير القرآن العظيم » (٦/٣٢٤)] .

سماع الأموات للأحياء !!

وقد اختلف الناس فيما إذا كان الأموات يسمعون مخاطبة وسلام الأحياء لهم ، ويدركون دلالته أم لا ؟! وقد استدلت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ، على توهيم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في روايته ، مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته ﷺ إياهم ، وتقريعه لهم ، حتى قال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جيَفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأوّلته أم المؤمنين رضي الله عنها ، على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » . وقال قتادة : أحياهم الله له ، حتى سمعوا مقالته تقريعًا وتوبيخًا ونقمة .

يقول الشيخ الشنقيطي في « أضواء البيان » : اعلم أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية ، واستقراء القرآن الكريم ، أن معنى قوله هنا : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ لا يصح فيه من أقوال العلماء إلا تفسيران :

الأول : أن المعنى ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أي : لا تسمع الكفار ، الذين أمات اللّه قلوبهم ، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه ، إسماع هدًى وانتفاع ؛ لأن اللّه كتب عليهم الشقاء ، فختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على قلوبهم الأكنة ، وفي آذانهم الوقر ، وعلى أبصارهم الغشاوة ، فلا يسمعون الحق ؛ سماع اهتداء وانتفاع . ومن الدلائل القرآنية الدالة على ما ذكرنا ، أنه جل وعلا قال بعده : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم : ٥٢] .

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أي : الكفار الذين هم أشقياء في علم اللّه ، إسماع هدًى وقبول للحق ، ما تسمع ذلك الإسماع ، إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ، فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى ، بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته ، فهو مسلم دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية : موت الكفر والشقاء لا موت مفارقة الروح للبدن .

المراد بالموتى .. والسماع المنفي !!

الثاني : هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل ، ولكن المراد بالسماع المنفي في قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع به صاحبه ، وأن هذا مثل ضرب للكفار ، والكفار يسمعون الصوت ، ولكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ ، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل ، لا يجب أن ينفي عنهم جميع أنواع السماع ، كما لم ينف ذلك عن الكفار ، بل قد انتفى

عنهم السماع المعتاد ، الذي ينتفعون به ، وأما سماع آخر فلا ، وهذا التفسير الثاني جزم به ، واقتصر عليه العلاّمة أبو العباس ابن تيمية رحمه اللّه .

الميت يسمع قرع المشيعين !!

وابن كثير رحمه اللّه أيد هذا الرأي ، وأورد أحاديث وحكايات استدل بها ، حيث يقول : والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححًا له ، عن ابن عباس مرفوعًا : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه إلا ردّ اللّه عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » .

وثبت عنه ﷺ : أن الميت يسمع قرع المشيعين له إذا انصرفوا عنه . وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلّموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه ، فيقول المسلّم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا .

روى الترمذي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : ضرب رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا

بإنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة « الملك » حتى ختمها ، فقال النبي ﷺ : « هي المانعة ، هي المنجية من عذاب القبر » . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب (٥/١٦٤) .

المنامات لا تصلح كأدلة شرعية !!

وتقترن الكتابة عن سماع أهل القبور وردهم على من يسلّم عليهم ، كما جاء في بعض الأحاديث ، وما جاء من حكايات في المنامات عنهم ، بالكتابة عن تعبير الرؤيا والأحلام ، وبالحديث عن الروح التي هي من أمر اللّه ، وأن القول الفصل في ذلك ما جاء عن اللّه في كتابه الكريم ، وما ورد في السنة المطهرة ، وما فهمه سلفنا الصالح من علماء الأمة من توضيح لذلك .

وقد حرص علماء المسلمين على تدقيق هذه الأمور ، وكتبوا في ذلك كابن تيمية رحمه اللّه ، وتوسع تلميذه ابن قيم الجوزية في كتابه « الروح » في ذلك تحليلاً وتوضيحًا ، واستشهادًا بالصحيح من السنة ، وأقوال السلف ، ولكن يظهر من أقوال العلماء رحمهم اللّه : أن المنامات لا تصلح كأدلة شرعية في الحكم على موضع كهذا ، ولكن يستأنس بها في الوعظ والزهد وترقيق القلوب ، والدلالة على قدرة اللّه سبحانه ، ويستأنس بعض العلماء والباحثون ؛ لدعم النصوص التي ترد من قرآن كريم ، أو سنة مطهرة ، بما حصل للناس في حياتهم وتجاربهم ؛ لإيقاظ القلوب ، وربطها بخالقها ، مقترنة بما رآه العلماء بين رؤيا الخير ورؤيا الشر ، حتى لا يتلاعب الشيطان بابن آدم .

وفي كتاب « الروح » لابن قيم الجوزية ، رحمه اللّه ، جاء ذكر لبعض المصنفات في موضوع هذا الكتاب ، وأهمها وأكثرها نقلاً عنه وعن المفسرين كتاب القبور لابن أبي الدنيا ، وكذلك كتاب « المنام » له أيضًا .

الكتب التي تعرضت للموضوع

وقد أجمل تلك الكتب التي تعرضت لنفس الموضوع ، محقق كتاب « الروح » للدكتور : بسام العموس ، فقال بعد كتابَيْ ابن أبي الدنيا : وأما الكتب التي سبقت ابن قيم الجوزية فهي :

- « النفس والروح » لأبي عبد اللّه بن منده .
- «المجالسة» لأبي بكر أحمد بن مروان المالكي.
- « البستان » للقيرواني .
- « الفصل في الملل والنحل » لابن حزم الأندلسي .
- وأربعة كتب باسم « الروح » ، وهي لكل من : محمد بن نصر المروزي ، وأبي سعيد الخرّاز ، وأبي يعلى ، وأبي يعقوب النهرجوري .
- « الرؤيا » لمسعدة .
- « النفس والروح وشرح أمرهما » لفخر الدين محمد بن عمر الرازي ، المتوفى عام ٦٦٠هـ .
- كتاب « التذكرة في أحوال الموتى ، وأمور الآخرة » لشمس الدين محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى عام ٦٧١هـ .

وقارن بين كتاب « التذكرة » وبين كتاب

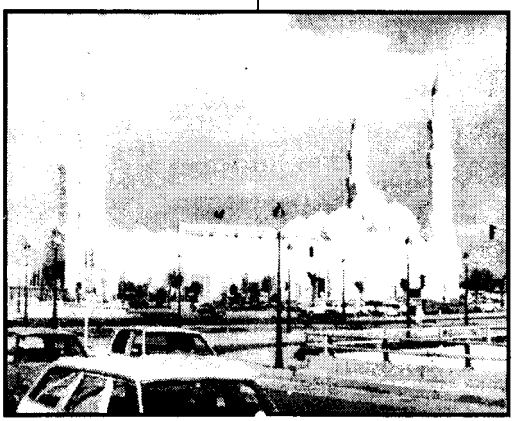

« الروح » بقوله : ويختلف كتاب « التذكرة » عن « الروح » في أن الأخير ناقش القضايا الفلسفية ، والتقى معه في القضايا التي تبنى على النصوص مباشرة ، مثل قضية عذاب القبر ، وقبض الروح ، وانتفاع الميت بسعي الحي ، وضمة القبر ، والحق يقال : أن كتاب القرطبي قد ذكر قضايا كثيرة ، لم يذكرها ابن القيم في « الروح » ، لكن هذا لا يعني التقليل من شأن كتاب « الروح » ، بل إن لكل شيخ طريقة . [« الروح » (١/١١٧- ١١٩)] .

عودة الروح إلى الجسد

وقد بين ابن تيمية في « فتاواه » إجابات عديدة عن عودة الروح إلى الجسد ، عندما يسأل في قبره ، وعن تعليله لمخاطبة رسول اللّه ﷺ للمشركين القتلى في بدر ، المرميّين في بئر ، حيث ناداهم ﷺ بعد ثلاثة أيام من قتلهم بأسمائهم ، ويقول لهم : « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا » . وأجاب ﷺ لما سأله عدد من الصحابة : وهل يسمعون وقد أرِمُوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع منهم مني » . وقال ابن تيمية في حديث عذاب القبر : فقد صرح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد ، وباختلاف أضلاعه ، وهذا بيّن في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين . [« الفتاوى » (٤/٢٨٩)] .

وقد أورد الشيخ الشنقيطي رحمه اللّه في تفسيره « أضواء البيان » : وقد ثبت في الصحيح : أن الميت يستأنس بالمشيّعين لجنازته بعد دفنه ، فروى مسلم في « صحيحه » من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص رضي اللّه عنه وهو في سياق الموت ، فبكى طويلاً ، وحوّل وجهه إلى الجدار .. الحديث . وفيه : فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني ، فسنّوا على التراب سنًا ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر الجزور ، ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي . فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عنده ، ويسرّ بهم . ومعلوم أن هذا الحديث قد حكم له بالرفع ؛ لأن استئناس المقبور بوجود الأحياء عند قبره لا مجال للرأي فيه ، ومما قاله ابن القيم : ويكفي في هذا تسمية المُسَلّم عليهم زائرًا ، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائرًا ، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره ، لم يصح أن يقال : زاره ، وهذا هو المعقول من الزيارة . [(٦/٤٣١، ٣٢)].

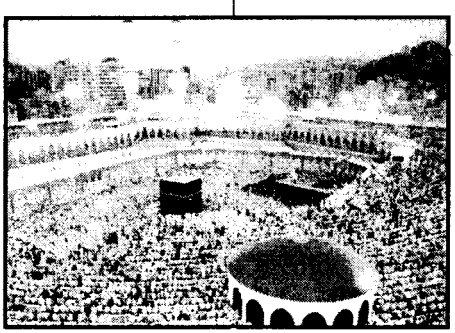

وصول ثواب الصدقات إلى الميت !!

حديث عائشة رضي اللّه عنها ، أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أُمّي افْتُلِتَتْ نفسها ، وأظنها لو تَكَلّمَتْ تَصَدّقَتْ ، فهل لها أجرٌ إن تصدّقْتُ عنها ؟ قال : « نعم » . [متفق عليه] .

الأولاد الذين قيل عنهم : مجبنة مبخلة ؛ لأن محبتهم والحرص عليهم ، مما يجعل الإنسان يُصاب بالجبن والبخل ؛ خوفًا عليهم ، وزيادة في الحرص عليهم ، هؤلاء الأولاد مسئوليتهم في التربية ، وحسن التوجيه كبيرة ، وإعدادهم الإعداد الحسن ، ورعايتهم جسمانيًا عند الصغر ، وتعليميًا في مقتبل العمر ، وأخلاقيًا في سن المراهقة ، كل هذا يتطلب جهدًا من الأبوين ، واهتمامًا بالتوجيه : شدة من غير عنف ، ولينًا من دون ضعف ، كما هي شَغرة معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه .

وذلك أن الأب بحسن قدوته وعمله ، والبيت بالتفاهم في جنباته ، والأسرة بترابطها وحرصها على القيم المحمودة ، والتأدب بالآداب الحسنة ، كل هذا له انعكاسات طيبة على مسيرة الابن ونموه العقلي والحسي ، واهتمامه بكل حسن تتجه إليه أنظار الأبوين ؛ استقامة وحسن أدب ، كما قيل :

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوّده أبوه

فهم زينة الحياة الدنيا ، إذا استقاموا على الحقّ ، وعرفوا ما أوجب الله عليهم ، نحو دينهم وأبويهم ، وهذا أول ما يجب أن يحرص عليه الوالدان ، ولتمكينه من أبنائهم في السلوك والعمل ، يقول سبحانه : ﴿ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ [النساء : ١١] .

الأبناء وتربيتهم

بقلم د . محمد بن سعد الشويعر

ونفع الأولاد جزء من صلاحهم الذي تقوّمه التربية الإسلامية ، وترفع قيمته ما تحرص عليه تعاليم الإسلام وعباداته ، من تهذيب للطباع ، وتعويد على العادات الحسنة والأخلاق التي ترفع مكانة الفرد والجماعة ؛ استقامة وفلاحًا .

أما إذا ضعفت الرعاية ، وتخلخل البيت ، وانقلبت الموازين ، بحيث أُهمل الولد في سن تفتحه عن حسن التوجيه ، أو نشأ في بيئة لا تعرف التوجيه ، ورأى القدوة السيئة بالعمل والقول ، فإنه يتحول إلى عدو يخشى منه ، منحرف عن الطريق السوي ؛ ليكون عاقًا لوالديه ، غير مستجيب للإرشاد في أمور دينه والمحافظة على شعائر ربه ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

فالابن إذا لم يتخلق بآداب الإسلام ، ولم يكن في تعامله مع أبويه منطلقًا من تعاليم هذا الدين وأوامره ، التي يتلقاها من أبويه في البيت ، ومن أساتذته في المدرسة ، فإنه يكبر وتنمو معه العداوة لوالديه ، ليكون فتنة يشغلهما هاجسًا ومتابعة وإحساسًا ، عن الأمور التعبدية ، بل قد يكون هذا الابن ضارًا بوالديه ، جالبًا لهما المتاعب والمشكلات ؛ بتصرفاته وآثاره حول نفسه ومجتمعه .

وكان بعض السلف يكرّر في دعائه : اللهم لا تجعلني ولد سوء ، ولا والد سوء . فالولد السوء

يرهق والديه ، وتسوءهما تصرفاته ، والولد السوء ينعكس أثره على أولاده ، فيقلدونه ؛ لأنهم يرونه نموذجهم ، الذي تفتحت عيونهم على تصرفاته ، وقد جاء في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، والولد الذي قتله الخضر ، قال معللاً السبب : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف : ٨٠] .

وإذا كانت شريعة الإسلام بمصدريها : كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ تدعوان الأبناء إلى التأدب بآداب دين الله ، والتخلق بحسن الأدب مع الوالدين ، تقديرًا لمكانتهما : في القول والعمل ، وفي البر والإحسان ، فإن على الآباء والأمهات واجبَيْن في رعاية أولادهم :

الأول : إكثار الدعاء والابتهال إلى الله بصلاحهم ، واستقامتهم على تعاليم دينهم ؛ مواظبة وأدبًا ، واستقامة على المنهج السليم ، امتثالاً لأمر الله ، حتى يكونوا قرّة عين ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

وينبع هذا الدعاء حمد الله وشكره إذا رأى منهم بادرة خير ، وسؤال الله الزيادة ، وعدم الاستهزاء أو الشماتة إذا رأى انحرافًا من بعض الشباب ، حتى لا ينعكس الأثر على أولاده ؛ لأن من شمت بأخيه ، قد يعافيه الله ويبتلي الشامت بهذا العيب ، ولا ينسب الأثر الحسن على أولاده بجهده وأعماله ، بل ينسب ذلك لله سبحانه ؛ عرفانًا بفضله ، وشكرًا له على هذه النعمة التي هي من الله . وبالشكر تدوم النعم ويزيدها الله :

نعم الإله على العباد كثيرة
وأجَلُّهن نجابة الأولاد

الثاني : توجيه الأولاد برفق وأدب ، واعتبارهما كإخوة يتعامل معهم بما يتناسب مع مداركهم ؛ مرحلة مرحلة ، وضرب النماذج المحسوسة المشجّعة ، وإعطاء الفرص للتعبير عن

شريعة الإسلام بمصدريها : الكتاب والسنة تدعوان الأبناء إلى التأدب بآداب دين الله ، والتخلق بحسن الأدب مع الوالدين ، تقديرًا لمكانتهما في القول والعمل ، وفي البر والإحسان !!

خلجات النفوس ، بالحوار والنقاش ، فإن للآباء دورًا في تنشئة أبنائهم على حسن الأدب ، وكريم الأخلاق ، واكتساب عواطفهم ، حتى يصبح الأدب جزءًا من كيانهم : طبعًا غير متكلف ، ومنطقًا سليمًا ، يبرز أثره لديهم ، وتكبر نتائجه يومًا بعد يوم ، نجابة يعتزون بها ، وخلقًا يتجملون به ، وطباعًا تبرز رجولتهم المبكرة ، يُثْنَى عليهم بها في المجالس والمنتديات ، مما ينشرح له صدور الوالدين .

إن الأبناء كلما حرص الوالدان عليهم ؛ ذكورًا وإناثًا ، منذ تفتحت فيهم البراعم لتلقينهم : حسن التعامل مع الآخرين ، وعدم التكبر والاستعلاء ، والتأدب في الحديث ، واحترام الأكبر منهم ، وإنزال الناس منازلهم ، وحسن الإجابة عندما يتكلم من هو أكبر منهم ، فإنما يغرسان فيهم بذور الخير ، التي يأخذها الأبناء جزءًا من كيانهم ، مثلما يغذيانه الوالدان بحسن الطعام وأجوده ، ومثلما يحرصان على توفير متطلبات الحياة العديدة له ، في البيئة والمدرسة ، تلك الأشياء التي يعتد بها الابن ليفاخر بها أقرانه ، فإنه لن ينسى مع حسن الرعاية ، وإحسان الوالدين إليه : الإشادة بهما ، وتقدير دورهما نحوه .

فالأبناء مع أبويهم كالأرض مع المُزارع ، فإن اهتم بأرضه ، وأجاد في رعايتها والعناية بها ، جاد نبتها ، وطاب ثمرها . وإن أهملها ، وخف ميزانها عنده ، لن يجد فيها ما يسره ، غير الشوك وسيئ النبات ؛ لأن كلاً من الطرفين يحصد مما بذر ، فإن اجتهد وبذل شيئًا نافعًا مفيدًا ، فإنه سيحمد العاقبة في الحصاد . وإن أهمل أو زرع شيئًا رديئًا ولا نفع فيه ، جاءه من المحاصيل نوع مما زرع جنسًا وطعمًا ، فلن يحصد قمحًا أو أرزًا من بذر ذرةً أو شعيرًا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

وقد أخبر النبي ﷺ : « أن كل مولود يولد على الفطرة » أي : أنه خالٍ من كل شائبة ، قابل للخير إن وجّه إليه ، قريب من الشر إن لم يحسن الأبوان رعايته وتعليمه ، والعناية به ، « فأبواه يهودانه ، أو يمجسانه أو ينصرانه » الحديث .

وهذا الحديث يبين الدور الكبير الملقى على عاتق الأبوين في تربية الأبناء ، فقد يحرفانه عن المنهج السليم والفطرة التي فطره الله عليها ؛ ولذا فإن الواجب على الأبوين رعاية هذه الأمانة ، وهم الأبناء ، وتوجيههم التوجيه السليم ، حتى يكبروا على ما تعوّدوه من أبويهم ، بدءًا بالعقيدة والعبادات ، وحرصًا واهتمامًا بها في وقتها ، ألم يقل رسول الله ﷺ : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » . وهذا الأسلوب من أهم آداب التعليم تربويًا ، في سن التفتح الذهني والقدرة على الفهم والاستيعاب .

وما ذلك إلا أن الأبناء عند سن النضج ، وتفتح الذهن على المعرفة ، يرون المثالية في الوالدين : قدوة تؤدى بالعمل ، وأدبًا يؤخذ بالمحاكاة والتقليد ، والمثل العربي يقول : (كل فتاة بأبيها معجبة ..) ، وكثيرًا ما نرى الأطفال قبل أن تنطلق ألسنتهم بالكلام ، يحاكون آباءهم وأمهاتهم في كيفية الصلاة وأدائها والاتجاه إلى القبلة وافتراش سجادة الصلاة ، والبنت تلبس الحجاب ، ورداء الصلاة الساتر .

وهذا من حسن الأدب الذي تَعودوه من الأبوين ؛ لأنهم يرونهم يهتمون بهذه العبادة ، ومثلها سائر العبادات ، ولا ينبغي أن تفوت هذه الفرصة على الأبوين ، بدون تمكين ما يجب إيصاله لأذهانهم ، وغرس الفضائل والقيم كجزء من التعليم المبكر ، الذي تتمكن جذوره ؛ لأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر .

فلا يرون من أبويهم ومن هو قريب منهم إلا ما فيه الخير والنفع ؛ ليكبر الأبناء ويكبر معهم هذا الأثر ، أما إذا حصل العكس في الشيء الذي يحسن إبعاده عن الأبناء ، فإن شخصية الأبناء تصبح مهزوزة ، وأعمالهم متأرجحة ، بين مثاليات تلقى عليهم نصحًا وتوجيهًا ، وأعمال يرونها مناقضة لها .

فالأبناء يأخذون بالمحاكاة والتقليد عن أبويهم ما يقومون به من عمل ، ويرسخ في قلوبهم ما يقرع آذانهم من كلام ، سواء أكان حسنًا أو غير حسن ، فإذا كان الأب ممن ابتلي ببعض المعاصي ؛ كالتهاون بالصلاة ، أو مشاهدة المناظر غير الحسنة من التلفاز ، أو شرب الدخان ، وغير ذلك من الأمور ، وكذلك الأم ، فإن الذي يجب تعويد النفس عليه ترك تلك الأشياء ، أو الاختفاء عنهم في فعلها ، حتى لا يأخذها الأبناء دروسًا غير حسنة ، وطباعًا تعلموها من أبويهم ؛ عملاً أو نطقًا ، لأن الولد يقلد أباه ، والبنت تحاكي أمها ، كما يجب أن يكون

الأبناء مع أبويهم كالأرض مع المُزارع ، فإن اهتم بأرضه ، جاد نبتها ، وطاب ثمرها . وإن أهملها ، وخف ميزانها عنده ، لن يجد فيها ما يسره ، لأن كلاً من الطرفين يحصد مما بذر !!

من حسن التربية للأبناء : مثالية الأبوين بحسن الخلق ، وحسن النطق ، وعدم بذاءة اللسان سبًّا وتطاولاً ، وألفاظًا بذيئة ، وألا يجاهر الوالدان بما بُليا به من أمور تتعلق بحسن الخلق وأدب الحديث ، وغير ذلك مما يبرز أثره في الأبناء وتربيتهم .

والمدرس كالأب بالمنزلة في التعليم ، مع الصغار في المراحل التعليمية ، فلا يأمر تلاميذه بالصلاة ، ويتكاسل عنها ، ولا يحذرهم من الدخان وهو يدخن أمامهم ، ولا ينفرهم من الكذب وهم يرونه يكذب عليهم ، حتى لا يتحقق فيه قول اللّه تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٣]، ولكن إذا بُليتم فاستتروا .

فالصغير ذاكرته الصافية ترصد بإحساس ودقة كل ما يمر به ، ويتأكد عنده ما يربي فيه تناقضًا يبلبل فكره ، ولا شك أن الآباء يحبون لأبنائهم أعلى المراتب ، وأسمى منازل الأدب وحسن التربية ؛ لأنهم جوهرة ثمينة عندهم ، وصفهم الشاعر بقوله :

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم
لم تنطبق عيني من الغمض

وحتى يتحقق هذا فإن دورهم أن يربطوا حرصهم على العناية بصحتهم وغذائهم ، بالعناية بعقولهم وتصفية أذهانهم ، وملئها بما فيه النفع والفائدة ، حتى تقر عيونهم بحسن النتيجة .

ولذا فإن من الواجب على الآباء : مساعدة أبنائهم في انتقاء الأصحاب ، لا تركهم يتخبطون في العلاقات ، فإن الأبناء يتأسون بزملاء الدراسة ، ورفقاء المجتمع ، فالنوعية الخيرة من أعظم زينة الحياة ؛ لأن الوالد يجب أن يكون صديقًا لابنه يفهم آراءه ، ويساعده في تخطي الصعاب ، ويبصره بالصاحب الذي يعينه على الخير .

● فيحسن بالأب أن يعطي أبناءه المعلومات والتوجيهات بصوت منخفض ، ويلقنهم الآداب بلطافة وحسن تعامل ، ويناقشهم في دروسهم وهواياتهم ، ويقرّب لهم الأمور بأمثلة مقنعة محسوسة ، تثبت في القلب .

● والأم يجدر بها أن تجد فيها ابنتها النموذج الحسن والرأي الناضج ؛ تخلقًا بآداب الإسلام ، وتطبيقًا لمنهجه في شئونها ، وعدم تبرجها ، أو عدم التجوّل في الأسواق ؛ لأن من أدب الإسلام ، الذي أدب به النبي ﷺ نساءه ، ونساء المؤمنين تبع لهن ، الأمر بالقرار في البيوت ، وعدم التبرج ، والحرص على الستر ، والحجاب الذي أمر للّه به ، وعدم الخضوع في القول : صوتًا أو حركة ، حتى لا يطمع الذي في قبله مرض ، يقول اللّه سبحانه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

● والبنت كما يقال : قدوتها أمها ، وتنغرس طباعها فيها ، حيث تسري أعمالها وأقوالها في ابنتها ، وما تغرسه الأم فيها من أدب رفيع ، يبرز عند البنت ، وينمو معها في حياتها الزوجية ، إما سعادة وتفاهمًا ، أو نكدًا وسوء عشرة مع الزوج ، مما يَبين أثره في تربية الأبناء ، واستقامة أخلاقهم ، ونتائجهم الدراسية ، إن لم يبن ذلك في الجوهر ، وهو الالتزام الديني .

● ولا ينسى الآباء أن ما يبذلونه بالتعاون مع المدرسين ، سيجدون أثره برًّا بالآباء ، وتأدبًا معهم ، حتى يتواصل الفرع بالأصل ، كما جاء في الحديث الشريف : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم » .

فالأبناء في حداثتهم صفحة بيضاء نقية ، تتقبل أذهانهم ما يرسمه الآباء فيها : ذكورًا وإناثًا ، وعلى الأولياء أن يحرصوا على ملء هذه الصفحة بكل أمر حسن ، وبتأصيل قيم الإسلام وآدابه في نفوس أبنائهم خلقًا وعملاً ؛ لأن من شب على شيء شاب عليه ، وعند الصباح يحمد القوم السرى . واللّه من وراء القصد .

فقد الأبناء ... وتحمل مصابهم

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر

الموت يفرّق بين الأحبة، ويدخل كل بيت، ووقعه على النفوس أليم، واقتضت حكمة الله البالغة أن يذوق مرارته كل إنسان، ويتجرّع غصّته كل بني آدم؛ ولذا كانت أوامر دين الإسلام، تحثّ على الصبر، وقوّة التحمل، حتى تهدأ النفوس، وتتحمل وطأة هذه المصيبة، عندما تقع، فكان من تسلية النفس أن قرن الأمر بالثواب، ووعد الصابر الأجر الجزيل، عند الله يوم القيامة.

امتداد الفرع من الأصل !!

والأبناء الذين جعلهم الله قرة الحياة الدنيا وزينتها، هم من أشدّ من تقع وطأة موتهم على الإنسان؛ لأنهم امتداد الفرع من الأصل، ولأنهم بهاء الحياة وفخرها، إذا أصلحهم الله، وبهم يصل الأجر بعد الوفاة لوالديهم. يقول سبحانه: (المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا) (الكهف: ٤٦)، وإذا كان الولد محبوبا عند الإنسان، ومرغوبا فيه، حيث يحرص كل فرد، من ذكر وأنثى على أن يكون له أولاد يمتدّ بهم أصله، وتزدهر بهم أمامه الحياة الدنيا؛ لأن الأولاد من زينتها، ويعالج من تأخر مجيء الأولاد له، حيث يهفو قلبه إليهم، وترتاح نفسه عند الحصول عليهم. مع أن تربيتهم وتعليمهم أمانة كبيرة.

بل قد حكى الله عن نبيّه زكريا، وغيره من الأنبياء، رغبتهم في الولد، فقال تعالى: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ) (الأنبياء: ٨٩)، فاستجاب الله دعاءه، ووهبه الله غلامًا رغم أن امرأته كانت عاقرا، آية منه سبحانه، فقال سبحانه: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا) (مريم: ٧).

الصبر على فقد الأبناء !!

ولوجود هذه الرغبة، فإن كثيرا من أهل العلم، الذين أدركوا عمق النصوص الشرعيّة، وما جاء في الصبر على فقد الأبناء، كانوا يفضلون أن يموتوا قبلهم، ليحتسبوهم عند الله أجرا مدّخرا، يتحملون غصّته في الدنيا، وألم الإصابة بفقده، تصبّرا وتحمّلا، رجاء الثواب من الله، وكونه في ميزان الحسنات يوم المعاد استنادا لما بلغهم عن رسول الله ﷺ في ذلك، ووقوفا عند النصّ الشرعي الذي يحمل البشارة، ورحم الله من انتهى إلى ما سمع.

فقد جاء عن جماعة من العلماء والعبّاد، تمني تقديم الأولاد؛ لما يعلمون في ذلك، للمصاب من أجر جزيل عند الله، ومضاعفة الثواب. قال أبو الأحوص عوف بن مالك الجشمّي قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وعنده بنون له ثلاثة غلمان، كأنهم الدنانير حسنا، فجعلنا نعجب من حسنهم، فقال لنا: كأنكم تغبطوني بهم، قلنا: إي والله، لمثل هؤلاء يغبط المرء المسلم، فرفع رأسه إلى سقف بيت له صغير، قد عشش فيه خطاف وباض، فقال: والذي نفسي بيده، لأن أكون قد نفضت يدي عن تراب قبورهم، أحب إليّ من أن يسقط عشّ هذا الخطاف وينكسر بيضه. وما ذلك من بغضه لهم، ولكنه يريد أجرهم عند الله بالصبر على ذلك؛ لما جاء في مثل هذا الحديث، الذي روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان يوم القيامة نودي في أطفال المسلمين، أن اخرجوا من قبوركم، فيخرجون من قبورهم، ثم ينادى فيهم: أن أمضوا إلى الجنة زمرا، فيقولون: يا ربنا ووالدينا معنا؟ فيقول في الرابعة: ووالديكم معكم، فيثب كل طفل إلى أبويه،

فيأخذون بأيديهم، فيدخلونهم الجنة، فهم أعرف بآبائهم وأمهاتهم يومئذ من أولادكم في بيوتكم». خرجه أبو نعيم، من طريق الطبراني.

الإيثار لجزاء الله يوم القيامة !!

ومستندهم في هذا الأمر الشرعي، الذي يحرصون على التسابق التطبيقيّ فيه: اعتقادًا وعملاً، تقديمًا للآجلة عن العاجلة، وإيثارًا لجزاء الله يوم القيامة، على نفع الدنيا، فقد أخرج الترمذيّ عن حماد بن سلمة عن أبي سنان: يعني عيسى بن سليمان القسمليّ قال: دفنت ابني سنانًا، وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فقال: ألا أبشرك يا أبا سنان، قلت: بلى، قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عزرب عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله عز وجل لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول سبحانه: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول سبحانه - وهو أعلم -: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد».

ولئن حصل الحزن، ودمعت العين، فإنما ذلك رحمة من الله، يخفف الألم، بفقد الحبيب الغالي على القلب، فإن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم حزن قلبه، ودمعت عيناه، وقال: «القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الربّ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

الله يبتلي عباده بالشر والخير !!

والمنهي عنه هو الجزع والهلع، والنياحة وشقّ الجيوب؛ لأن هذا تسخّط وعدم رضا، بما قدّر الله، لأن الله يبتلي عباده بالخير والشرّ، لينظر سبحانه بماذا يبرز في أعمالهم، وما تتحمله نفوسهم، من استسلام لقدر الله وقضائه، وصبر واحتمال؛ لأن الصبر عند الصدمة الأولى، ولأن ذلك يقمع نزغات الشيطان، ويردّ وساوسه، وقد جاء الحث على الصبر في كتاب الله الكريم قرابة مائة مرّة، ولعظم مكانته في عقيدة المسلم، الذي عرف الله فهانت مصيبته عليه، وأدرك مكانة الصبر، فاهتم به تطبيقًا واحتسابًا؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)، والصابر لا يزال مستغيثًا بنور الله وهدايته، ثابتًا على الصواب، مع ما في ذلك من حصول الأجر وجزيل الثواب، وأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، قدوة في الصبر والثبات، وعدم الجزع مما يصيبهم، فقد كان أيوب عليه السلام، كلما أصابته مصيبة، وهو ممن بيّن الله في القرآن بعضًا مما أصابه من الابتلاء، كما يقول: «اللهم أنت أخذت، وأنت أعطيت، بهما تبقى نفسي، أحمدك على حسن بلائك».

وأخبر النبي ﷺ في أحاديث عديدة عن منزلة الصبر، فقد خرّج مسلم في «صحيحه»، من حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، وكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، وكان خيرًا له».

التعزية تخفف وطأة الألم !!

وكان رسول الله ﷺ يواسي أصحابه، عندما يتوفى لهم أولاد، ويعزيهم؛ ولذا كانت التعزية سنة؛ لأنها تخفف وطأة الألم بفقد الصفيّ، وتشعر المصاب بالتآخي الإسلاميّ، بين أبناء هذا الدين والترابط واهتمام بعضهم ببعض، كما أن في التعزية الدعاء وذكر ما يسليّ وترتاح إليه القلوب، وما يزيل كابوس عدوّ الله الشيطان، ويزيل وساوسه.

المرأة أكثر حزنًا على فقد ولدها !!

والمرأة أرقّ قلبًا، وأكثر حزنًا على فقدان ولدها، بل يزيد الألم إذا كان الولد وحيدها، ولكن المصطفى ﷺ يعطيّ أمته دروسًا في الموطن المناسب، كجرعات الدواء للمريض، فقد روي عن عبد الله بن بريد، عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ؛ إذ بلغه وفاة ابن لامرأة من الأنصار، فقام وقمنا، فلما رآها قال: «ما هذا الجزع؟» قالت: يا رسول الله، ما لي لا أجزع وأنا رقوب لا يعيش لي ولد؟ فقال لها النبي ﷺ: «إنما الرقوب التي يعيش لها ولدها، أما تحبين أن ترينه على باب الجنة، وهو يدعوك إليها؟» قالت: بلى. قال: «كذلك لك في ذلك».

المصيبة بفقدان الأولاد !!

وعلماء السلف بحرصهم على احتساب أولادهم، عندما يتوفون قبلهم، ويفرحون بذلك، فإنما ذلك لأنهم سمعوا وامتثلوا: ورحم الله امرأ انتهى إلى ما سمع. فإن عظم الأجر، على قدر عظم المصيبة، والمصيبة بفقدان الأولاد من أعظم المصائب، لأنهم من أغلى ثمرات الدنيا، ويدركون من حديث رسول الله ﷺ، الذي أخرجه ابن ماجه، عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها، وإن قدم عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله تبارك وتعالى له عند ذلك مثل أجرها يوم أصيب». (ورواه أحمد، واللفظ له).

وقد فهم هذا، وأدرك عمق دلالة الآية الكريمة في المصيبة: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) كثير من علماء التابعين، منهم عبد الله بن مطرف بن عبد الله بن الشخير. فقد قال بعد أن مات له ولد: والله لو أن الدنيا وما فيها لي، فأخذها الله عز وجل مني، ثم وعد لي عليها، شربة ماء، لرأيتها لتلك الشربة أهلاً. فكيف بالصلاة والرحمة والهدى.

لهذا تمنيت موته !!

ورؤيا الرجل الصالح، إن كانت خيراً فهي بشارة، وإن كانت غير ذلك فهي تخويف وإنذار ليستعدّ ويأخذ الأهبة، قبل فوات الأوان. فقد حدّث وكيع، قال: كان لإبراهيم الحربي ابن، وكان له إحدى عشرة سنة، قد حفظ القرآن، ولقنه الفقه شيئاً كثيراً. قال: فمات. فجئت أعزيه فيه، فقال لي: كنت أشتهي موت ابني هذا! قال: فقلت: يا أبا إسحاق، أنت عالم الدنيا، تقول هذا القول في صبيّ قد أنجب، وحفظ القرآن، ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم. رأيت في المنام كأن يوم القيامة قد قامت، وكأن صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء، يستقبلون الناس، يسقونهم، وكان اليوم يوماً حاراً، شديداً حرّه، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إليّ وقال: ليس أنت أبي، فقلت: فأيش أنتم؟ فقال: نحن الصبيان، الذين متنا في دار الدنيا، وخلفنا آباءنا، نستقبلهم فنسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته.

وعمر بن عبد العزيز رحمه الله، الخليفة الأموي، الذي كان يسمى الخليفة الراشد الخامس، ضرب نموذجاً من النماذج التي تحتذى بالصبر، وقوة التحمل، وعدم الجزع، بل السرور عندما مات ابنه عبد الملك، فقد روى سفيان الثوري، قال: قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك وهو مريض: كيف تجدك؟ قال: في الموت، قال له: لأن تكون في ميزاني، أحب إليّ من أن أكون في ميزانك، فقال له: يا أبت، لأن يكون ما تحبّ، أحب إليّ من أن يكون ما أحبّ. قيل: فلما مات ابنه عبد الملك، قال عمر: يا بنيّ، لقد كنت في الدنيا كما قال الله جل ثناؤه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، ولقد كنت أفضل زينتها، وإني لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات، التي هي خير من الدنيا، وخير ثواباً، وخيراً أملاً... والله ما سرني أني دعوتك من جانب، فأجبتني، ولما دفنه قام على قبره، فقال: ما زلت مسروراً بك، منذ بشرت بك، وما كنت قط أسرّ إليّ منك اليوم، ثم قال: اللهم اغفر لعبد الملك بن عمر، ولمن استغفر له.

تسلية ذوي المصائب !!

وقد حرص علماء المسلمين، أن يجمعوا ما تيسر من علم مستمد من كتاب الله، وسنة رسوله (في تسلية ذوي المصائب، وتذكيرهم عندما تهتزّ نفوسهم، بفقدان من هو عزيز لديهم، حتى يجدوا في ذلك عزاء عن المصيبة، وسلوة عن الجزع والتسخّط، حتى يكبر في قلوبهم قضاء الله وقدره، وحتى يحتسبوا عند الله أجر ما حلّ بهم، فيظهروا السرور في حالة الجزع، والرضا والقناعة، في ساعة الصدمة الأولى، وكان ممن ألف في هذا، الشيخ أبو حفص عمر بن أحمد الحلبي المتوفى عام ٦٦٠هـ، وسماه: «تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد»، وابن ناصر الدمشقي المتوفى عام ٨٤٢هـ في كتابه: «برد الأكباد عند فقد الأولاد» وغيرهما.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

- «المصائب التي تصيب الإنسان في نفسه، أو في أسرته، أو في مجتمعه ليست شرًا محضًا يوجب الجزع، وإنما هي مَحك للإيمان، وابتلاء في الصبر، وحسن التحمل؛ إذْ بها تنقّى الأبدان، وتطهّر النفوس؛ ولذا فقد جعل لها الإسلام علاجًا، وبيّن ثواب الصبر عليها؛ لأنها ابتلاء واختبار، يظهر معه قوة الجوهر، وطيب المعدن.

وقد أبان الله في كتابه طريقة في التسلية، تريح القلوب، وتهدئ ثائرة النفس، وذلك بالصبر والاسترجاع، وقرن ذلك بالجزاء الأوفى من الله، والثواب الذي يرفع الله به درجة الصابر المحتسب، وهو وعد من الله سينجزه سبحانه، كما قال سبحانه: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة: ١٥٥- ١٥٧).»

المصيبة قد تكون نافعة

بقلم
د. محمد بن سعد الشويعر

ولا يوجد شخص في هذه الدنيا، مهما كان، وبأي موقع حلّ، لم تصبه مصيبة، من مصائب الدنيا العديدة، أو لم يتجرع ألمها، ويشعر بثقل وقوعها، مهما كان نوعها: صغيرة أم كبيرة، في النفس أو في الممتلكات؛ ولذا سمى بعضهم الدنيا بدار الأكدار، ومرتع المصائب، ولكنها دار الابتلاء، ومحك الإيمان والصبر.

ولكنّ وقوع المصيبة على المؤمن أخف ألمًا، من وقوعها على غيره؛ لأن إيمانه، وقوة عقيدته، وحسن توكله على ربّه مما يخفف هذا الوقع. يقول القرطبي في المصيبة: هي كل ما يؤذي المؤمن، ويصيبه، وقد جعل الله عز وجل، كلمات الاسترجاع، وهي قول المصاب: (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) ملجأً وملاذًا لذوي المصائب، وعصمة للممتحَنين من الشيطان؛ لئلا يتسلّط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة، فيهيّج ما سكن، ويظهر ما كمن؛ لأنه إذا لجأ لهذه الكلمات، الجامعات لمعاني الخير والبركة، فإن قوله: (إنا لله) إقرار بالعبودية والملك، واعتراف العبد لله، بما أصابه منه، فالملك يتصرّف في ملكه كيف يشاء، وقوله: (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) إقرار بأن الله يهلكنا، ثم يبعثنا، فله الحكم، في الأولى، وله المرجع في الأخرى، وفيه كذلك رجاء من عند الله بالثواب.

ومن بركة هذا الاسترجاع العاجلة، بالإضافة إلى ما ذكر، ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله به: (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ)، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله خيرًا منها».

قالت أم سلمة: فلما مات أبو سلمة قلت: أيّ المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله عليّ

برسول الله ﷺ. «تفسير القرطبي».

والمصيبة التي تحلّ بالإنسان، تختلف بحسب قدرة الإنسان على التحمّل، وبحسب ما وقر في نفسه من علاج، مستمد من شريعة الإسلام، يخفف عن الكاهل، ما ناء به من ثقل، فهي خير للإنسان، إذا تحملّها بصبر، وأدرك أنها جاءته ليمتحن الله إيمانه وتحمله، فقد روت عائشة رضي اللّه عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المؤمن، إلاّ كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها». رواه البخاري ومسلم.

وحتى تكون المصيبة نافعة، ودافعة للإنسان إلى أن يراجع نفسه، ويحاسبها على أعمالها، يودّ أن تزداد المصيبة عنده، لكي يزداد من الصبر، والإكثار من الدعاء لله، فتخف المصيبة عنده، ويشعر بلذة المناجاة، وطمع الدعاء، ثم فيما أعده اللّه للصابرين الممتثلين، ولذا فإن مما يتسلى به أهل المصائب:

- أن يعلم أن من المصائب والشدائد، ما تمنع من الفخر والخيلاء، والتكبر والتجبر، وقد ألّف العزّ بن عبد السلام في فوائد الابتلاء كلامًا حسنًا، جاء كثير منه في كتاب «محاسن التأويل» للقاسمي.

- وأن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه، فإنما هي بإذن اللّه عز وجل وقضائه وقدره، والإيمان بالقدر خيره وشرّه، وأنه من اللّه تعالى، ركن من أركان الإيمان، يقول ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف». رواه أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما.

- وعليه أن يجعل مكان الأنين والشكوى إلى الخلق، ذكر الله تعالى، وحمده على أن خفّف عنه المصيبة بما هو أعظم، وأن المصيبة لم تكن في الدين، وأن يوجه شكواه إلى الله سبحانه، فإنه هو الذي يكشف الضّر، ويخفف ألم المصيبة، وأن الله هو الرحمن الرحيم بعباده، فلم يرد إهلاكهم بهذه المصيبة، وإنما يحب منهم التضرع إليه، يقول سبحانه: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) (النمل: ٦٢)، يروى لابن القيم قوله عندما رأى شخصًا يشكو ما ألمّ به في مصيبته إلى الخلق: يا هذا تشكو من يرحم على من لا يرحم، ومن يملك الأمر، ويزيل الضرّ، على من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا؟ ما زدت على أن شكوت من يرحمك، على من لا يرحمك.

- ومما تسلو به النفس عند المصيبة، أن يتذكر المصاب هذا الحديث، عندما سئل ﷺ: أي الناس أشدّ بلاءًا؟ فقال ﷺ: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، ما عليه خطيئة». رواه الترمذي في باب ما جاء في الصبر على البلاء.

وقد روى سعيد بن منصور أن ابن عباس رضي اللّه عنهما، نعي إليه أخوه قثم- وهو في سفر- فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ راحلته، ثم صلى ركعتين، فأطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته، وهو يقول: (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة: ٤٥).

- وإذا عرف المصاب بالمصيبة أن الله قد جعل المصيبة دافعًا لتقوية الإيمان، وأمر سبحانه بالالتجاء إليه: دعاءً واسترجاعًا، وتحملاً وصبرًا، وقد وعده على ذلك بالبشارة العاجلة، والأجر الجزيل في الآخرة... وهو وعد من اللّه، ووعده سبحانه حقّ، فإن هذا من أمكن الطرق في التسلية، وامتثال القدوة بالعمل والاحتساب، يقول سبحانه: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)، ففيها بشائر ثلاث كل واحدة لها وزنها ودورها في سعادة النفس البشرية، وراحتها.

- وغير ذلك من الأمور، التي يجب أن يتمعّن فيها المرء، وفي مردودها على المصيبة والمصاب،

بما تسلو به القلوب، وتتعزّى به النفوس، حيث تخفّف وطأة المصيبة، بجانب ما يحسّ به المصاب المحتسب في تعامله مع المصيبة، فيجد لذة ومسرة، أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، فقد روي في باب الزهد مرفوعًا: «يودّ ناس، لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض، لما يرون من ثواب أهل البلاء».

فالله سبحانه وتعالى، إذا أراد بعبده خيرًا، ابتلاه على قدر حاله، حتى إذا هذّبه ونقّاه، وصفاه، أهّله لأشرف مراتب العبودية في الدنيا.. ويحدّد الشاعر مكانة الابتلاء عند الناس بقوله:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت

ويبتلى الله بعض القوم بالنّعم

ولا يجب أن يظن المرء أن الصحة والجاه والمال، نعمة، بل هي امتحان، لينظر الله ما يعمل فيها، ولا ما يقع على بعض الناس من مصائب وآفات، أن ذلك نقمة، بل قد تكون نعمة يؤجر عليها، بعدما امتحن الله إيمانه، وبرزت من ذلك خصال نفسه في حسن التحمّل، وكيفية التعامل مع المصائب: من رضا وقناعة، ودعاء وضراعة، وصبر وحسن تحمل.

يقول ابن الجوزي رحمه الله في «صيد الخاطر»: البلايا على مقادير الرجال، فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم، من دين ودنيا، وأولئك قوم، لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو أن الله سبحانه علم ضعفهم عن مقاومة البلاء، فلطف بهم.

وقصة عروة بن الزبير رحمه الله في صبره وقوّة تحمله عندما حلّت به مصائب عديدة، وهو في الشام عند الوليد بن عبد الملك، فقد رفست فرس ابنه محمدًا ومات، وأصابته الأكلة في رجله، فرأى الأطباء قطعها، حتى لا تنتقل إلى سائر جسده، وعندما جاءوا لقطعها. قالوا له: نسقيك المرقد- أي البنج- فقال: إنما امتحنني ربي ليعرف مقدار صبري واحتسابي، قالوا: إذاً فإنا نسقيك الخمر، حتى لا تشعر، قال: لا أستعين بمعصية الله على طاعة الله، قالوا: إذًا نأتي برجال ليشدّوك، حتى لا تتحرك، قال: يقول سبحانه: (وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ).

ثم قال: إذا سجدت فسوف أمدّها لكم وشأنكم بها، فقطعوها وهو ساجد، لم يتحرك. ولما سأله الوليد؟ قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

وقد جاء للوليد بن عبد الملك شيخ من عبْس كفيف البصر، ولما جلس عنده في عشيّة أحد الأيام، سأله الوليد عن حاله؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لقد بتّ في ليلة من الليالي، وما في عبس رجل أكثر مني مالاً وخيلاً وإبلاً وولدًا، ولا أعزّهم نفرًا، وأكثرهم جاهًا. فطرقنا سيل جذب، وذهب بالأهل والولد والمال وجميع الممتلكات، ولم يبق من ذلك إلا: غلام ولد حديثًا، وبكر شرود- وهو ولد الناقة الصغير- فاتجهت للصبي وحملته، ثم لحقت بالبكر الذي فرّ، ولما عجزت عن اللّحاق به، وضعت الصبي في الأرض، وسرت وراء البكر، فسمعت صراخ الصبي، ولما رجعت إليه وجدت الذئب قد أكله، فلحقت بالبعير، ولما أمسكت به، رمحني برجله على وجهي، فذهب بصري، وألقاني على قفاي، ولما أفقت إذا بي بعدما كنت في المساء من أصحاب الثروة والمال الحلال والولد والجاه والمكانة بين القبائل، قد أصبحت في الغداة، صفر اليدين، لا بصر في عينيّ، ولا ولد ولا أهل، ولا مال، ولا غيره. فحمدت الله على ذلك، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير، ليعلم أن في الدنيا من هو أكثر منه بلاءًا، وأشد تحملاً وصبرًا.

ولابن القيم رحمه الله في كتابه «شفاء العليل باختصار الدليل»، وابن الجوزي في مواعظه المجموعة في كتابه «صيد الخاطر»، وغيرها من المهتمين بالرقائق، ما يعالج قسوة القلوب، ويعين على الصبر والتحمل، عندما تنزل البلوى، واحتساب العمل معها قربة عند الله، تخف به المصيبة، ويعظم معه الأجر.

نسأله سبحانه الصبر على المصائب، والرضا بالنعم. والحمد لله رب العالمين.

الرؤيا بين الحقيقة والخيال

بقلم د. محمد الشويعر

ذكر الله سبحانه الأحلام أو الرؤيا في قصة يوسف عليه السلام، وفي سورة يوسف، وقد علّم الله يوسف تعبير الرؤيا، فوقع تعبيره عليه السلام كما قال؛ لأنه عِلْم عَلّمه الله إيّاه، ولكن الناس يختلفون في أحلامهم عندما ينامون، وفيما يتراءى لهم، بل وفيما كانوا يحدّثون أنفسهم به قبل أن يناموا.

كما يختلف المعبرون للرؤيا، في ذكائهم وفطنتهم، وفي موازنتهم الأمور وتعليلها، وفوق هذا وذاك في علمهم ودينهم، وورعهم عندما يعبرون الأحلام.

فالرؤيا الصالحة هي الرؤيا التي تعبر عن الحقيقة، وهي التي أوضحها رسول الله # في حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول الله # يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة».

وجاء في حديث اتفق عليه البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي هريرة رضي اللّه عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان- أي اقترب انتهاء أمر الحياة الدنيا- لم تكدْ رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزءً من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»، وفي رواية: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا».

ومن الرؤيا الصادقة، الرؤيا الحقيقية، التي ليس للشيطان فيها مدخل، بل إنه يعجز عن الدخول في هذا السبيل؛ رؤيا نبي الله، لأن الله حال بينه وبين أن يتقمص شخصية رسول الله ﷺ، فقد اتفق الشيخان على ما حدّث به أبو هريرة رضي اللّهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة- أو كأنما رآني في اليقظة- لا يتمثل الشيطان بي».

والرؤيا الحقيقية هي الرؤيا الصادقة، والتي يرى بعض المختصين، أن لها شروطًا تميزها عن غيرها، منها: أن يكون الرائي قد ذكر الله عند نومه، وقرأ وِردَهُ، وأن يكون نام على طهارة؛ لأن الشيطان لا يقترب ممّن ذكر الله وقرأ ورده، ونام على طهارة، أما الملائكة فإنهم ينفرون ممن تعرى، أو عليه جنابة، فكان الأفضل للمسلم إذا لامس أهله، أن يغتسل قبل نومه، أو يتوضأ.

وألا يكون نام وبه تخمة، أو على شبع، أو جوع شديد، وبعضهم يرى أن الجوّ المعتدل عن الحرارة من الأوقات المناسبة واعتدال المزاج، وعدم وجود مرض بالإنسان، وخاصة الحميات التي تسبب الهذيان.

وبعكسها الرؤيا الخيالية، أو الكاذبة، التي

تحصل في الغالب من مؤثرات نفسية وتخيلات، وأفكار قبل النوم كانت تشغل بال الإنسان، فتتراءى أمامه في منامه، ويسميها علماء النفس: أحلام اليقظة، أو خواطر النفس وخيالاتها، وفي هذه الحالة يأتي دور الإنسان مع الشيطان، الذي يحاول اغتنام نقاط ضعف فيه، ليدخل عليه من هذا المدخل، فيتلاعب به، إذا أحسّ بمجال يعينه على إشغاله، وبلبلة فكره.

والشيطان عندما يريد الدخول على الإنسان في منامه، فإنه يثير الأشياء المخيفة؛ كأن يكون الإنسان وقع في بئر، أو من مكان شاهق: أو مبنى كبير، أو جبل، أو مصيبة حلّت به، أو بمن هو عزيز لديه... إلى غير ذلك مما يراه الإنسان في منامه من الأحلام المفزعة.

فقد أخبر النبي ﷺ أن الرؤيا التي يرتاح إليها الإنسان وتفرحه هي من الله، أما نقيضها مما يكره أو مما تنقبض منه أسارير الإنسان وتترك أثرًا مؤلمًا في قرارة القلب، فإنها من الشيطان.

وقد جعل رسول الله ﷺ لأمته علاجًا ناجحًا، وسببًا معينًا على تحصيل آثار الرؤيا الحسنة بما يريح النفس، ويطمئن القلب، ويحمد الله على ذلك، وتخطي آثار الرؤيا السيئة، بما يعالج أثرها، ويسد المنافذ على عدو الله؛ الشيطان، ويقضي على تسلطه على الإنسان ووسوسته، فينخنس بقوة الرادع العلاجيّ الذي خرج من صيدلية الإسلام، وعلّمه رسول الله ﷺ لأمته.

وهذا العلاج يوضّحه حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله تعالى، فليحمد الله عليها وليحدث بها- وفي رواية: فلا يحدّث بها إلا من يحب- وإذا رأى غير ذلك، مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرّها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضرّه». رواه البخاري ومسلم.

وأضغاث الأحلام هي الأحلام الكاذبة، فالرؤيا الحسنة من الله، والحلم من الشيطان، ونصّ حديث أبي قتادة قال: قال النبي ﷺ: «الرؤيا الصالحة- وفي رواية: الرؤيا الحسنة- من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئًا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثًا، وليتعوّذ من الشيطان، فإنها لا تضرّه». متفق عليه. والنفث: نفخ لطيف لا ريق معه.

ورواية جابر رضي اللّه عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصق عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه». رواه مسلم.

فإذا أخذ الإنسان بالأسباب قبل النوم: طهارة، وهدوء بال، بدون هواجس ولا وساوس، أو تفكير في أمر يقلق أعصابه، ويستولي على أحاسيسه، ونام على طهارة وقرأ الورد الذي أمر به رسول الله ﷺ، وتحرى الهيئة التي حثّ عليها المصطفى ﷺ، فإن الواجب ألا يذكرها لأحد، بل يحمد الله على ما يَسُر، ويستعيذ بالله من شرّ كل ما فيه ضرر.

واستدل بعض أهل العلم على أهمية كتمان النعمة، حتى توجد وتظهر، كما حصل في رؤيا يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، إذْ أمره أبوه بعدم ذكرها لإخوته.

ورؤيا الأنبياء حق وهي جزء من الوحي، وبشارة بما يحصل لهم أو لأممهم. وصاحب الرؤيا إذا أراد تعبيرها ولا بد؛ فعليه أن يلتمس العالم العارف؛ ذا الفراسة والفطنة، والديانة والورع ليعبّرها له؛ لأن من كانت هذه صفته، قد يعطيه الله علم التعبير، كما عرف ذلك عن ابن سيرين رحمه الله- من علماء التابعين- وغيره في كل عصر ومصر،

ممن رزقهم الله موهبة في التعبير.

وقد روي أن المأمون العباسي، كان يبطل الرؤيا، ويراها أضغاث أحلام، ويقول: ليست بشيء، ولو كانت على الحقيقة كنّا نراها، ولا يسقط منها شيء، فلما رأينا أن ما يصحّ منها الحرف والحرفان من الكثير، علمنا أنها باطل، وأن أكثرها لا يصحّ.

وكان بعث بابنه العباس إلى بلاد الروم، فأبطأ عليه خبره، فصلّى ذات يوم الصبح، وخفق وانتبه، ودعا بدابته وركب، وقال: أحدّثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخًا أبيض الرأس واللحية، عليه فروة، وكساؤه في عنقه، ومعه عصًا وفي يده كتاب، فدنا مني وقد ركبت، فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسلامة، وناولني كتابه، فقال المعتصم: أرجو أن يحقق الله رؤيا أمير المؤمنين، ويسره بسلامته، ثم نهض المأمون، فوالله ما هو إلا أن خرج فسار قليلاً حتي أبصر شيخًا قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيته في منامي، وهذه صفته فدنا منه الرجل، فنحاه خدمه وصاحوا به، فقال: دعوه.. فجاء الشيخ، فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس، وهذا كتابه، فبهت من كان حول المأمون، وطال من ذلك تعجبهم، فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين، أتبطل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا.

لكن الذي يحذر منه رسول الله ﷺ هو الادعاء بأن الشخص رأى شيئًا وهو لم يره، إما لكي يتباهى به، أو ليجاري الآخرين في أحاديثهم عن الرؤيا، وقرن رسول الله ﷺ ذلك التحذير والعقاب الشديد بالكذب على رسول الله ﷺ، لما في ذلك من الإثم العظيم، والقول على الله، وعلى رسوله عليه الصلاة والسلام بغير الحق، فقد روى البخاري حديثًا عن واثلة بن الأسقع رضي اللّه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الفرى- جمع فرية، وهي الكذبة العظيمة- أن يُدْعى الرجل إلى غير أبيه، أو يُري عينيه ما لم تَرَ، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ».

لقد كان في «شقراء» حاضرة الوشم منذ تسعين عامًا قاضٍ متضلع بعلمه، ومعروف بورعه وزهده مع بصر بتعبير الرؤيا، جاءته يومًا امرأة قائلة: إنني رأيت في المنام كأن فارسًا على حصان أشهب قد دخل البلد، وله صوت أرهج أهل البلد، وفي يده اليمنى سيف، وفي الأخرى رمح، وصار يطوف بالبلد مع أكبر أسواقها فخرج الناس يمينًا وشمالاً، يستطلعون هذا الصوت، رجالاً ونساءً وأطفالاً من جميع الأعمار، فصار يضرب بالسيف فيهم يمينًا ويطعن بالشمال بالرمح، وكان ممن ضرب بالسيف أنت يا شيخ ثم عَدّت رجالاً ونساءً وولدانًا، قالت: أما أنا فقد وجّه إليّ رمحه، ولكنه عندما أهوى به، رأيت في رأسه قطعة قرعة، فانتبهت خائفة، فماذا يعني ذلك.. فاسترجع الشيخ، وقال لها: خيرًا إن شاء الله ولم يخبرها بشيء، ولكنه تحدث مع بعض طلابه بأن البلاد سيحصل فيها طاعون أو شيء يفتك بهم، وسأكون ومن ذكرت من الموتى، أحسن الله خاتمة الجميع.

أما هي فسوف ينجيها الله بالصدقة التي هي قطعة القرعة؛ لأن الصدقة تذهب ميتة السوء، وبعد عدة سنوات حصل المرض المشهور في نجد عام ١٣٣٧هـ، ومات فيه خلق كثير.

ومن يقرأ تعبيرات ابن سيرين، يجد نماذج عديدة وتعليلاتها، وكذا ما روي عن إياس بن معاوية وغيرهما، وفي بعضها محاسن، وبعضها مساوئ، كما يجد القارئ فطنة المعبر وذكاءه، وشواهده التي يستدل بها.

ونسأل الله العلي القدير أن يرزقنا الرؤيا الصالحة.

والحمد لله رب العالمين.

○○○

نصائح لراغبي الزواج !!

بقلم:
د. محمد بن سعد الشويعر

من نعم الله على خلقه، أن كانت حياة الناس ومعيشتهم المستقرة، ترتبط بالزواج، الذي به قوام الأسرة، وتعارف الناس فيما بينهم، وترابط الأسر، بالتراحم والتداخل في النسب.

وإن من حكمة الله البالغة أن خلق سبحانه حواء من ضلع آدم؛ ليكون الامتزاج والتآلف؛ لأنها جزء منه، كما يقال في المثل: وشبه الشيء منجذب إليه. ومن هذه الرابطة والانجذاب يكون التناسل والتوارث؛ لإعمار الكون في الحياة الدنيا، حتى يكتمل العدد الذي قدره الله، من هذا الامتداد البشريّ، حيث جعل سبحانه في كل من آدم وحواء رغبة وميلاً عاطفيًا ووجدانيًا تنتظم معه الحياة، وتستقيم العشرة والاندماج.

فكانت هذه الرغبة باقية في بني آدم، ما دامت الحياة مستمرة على وجه الأرض، فلا الرجل يستغني عن المرأة، ولا المرأة تستغني عن الرجل، ولكن الإسلام جعل هذا في تنظيم شرعي وآداب وأخلاق.

وكل من الفتى والفتاة وإن عاش في بيت مكفولاً ومكفيًا، تحوطه رأفة الوالدين وحنانهما، فإنه لا يشعر بالمودة والرحمة إلا مع الطرف الثاني، الذي به تكتمل حياته، حيث كل منهما يعتبر نصفًا، لا يلتئم مع النصف الآخر إلا بهذا الزواج، الذي شرعه الله، ونظمّه الإسلام، وحثت على المبادرة إليه أوامر هذا الدين.

فرسول الله ﷺ يحض الشباب على المبادرة بالزواج، منذ البلوغ، حتى يعفّ الإنسان نفسه، وتهدأ ثائرته، ويستقر بعواطفه ومشاعره، ويبتعد عن المزالق التي ينزلق إليها بعض الشباب، خاصة إذا صار مع الشباب وعواطفه فراغ وَجِدة، فإنه يسهل لقرناء السوء جذبه للمنحدر السيئ، يعينهم على دفعه نزوات الشباب وأهواؤهم، وأحيانًا يكون هذا المنحدر سحيقًا، بعيدًا غوره، قد يصعب انتشال من انحدر إليه. يقول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجِدَة
مفسدة للمرء أي مفسدة

يقول عليه الصلاة والسلام مخاطبًا الشباب: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة، فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء». رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه.

ففي حثه الكريم ﷺ على المبادرة مع الاستطاعة حصانة وعفّة، وغض للبصر عن المحارم، وكفّ للنفس عن الهواجس والوساوس، وبعد عن الاستسلام للنفس والهوى والشيطان.

هؤلاء الثلاثة الذين هم في حاجة إلى المجابهة والتصدّي؛ حتى لا يقع الإنسان في المزالق، فكان علاج رسول الله ﷺ للشباب الذين لا يستطيعون النفقة على البيت، ولا موارد لهم يدفعون منها المهر، ومستلزمات السكن، اللجوء إلى الصوم، كعلاج مؤقت، مع ما فيه من الأجر؛ لأنه يهدئ ثائرة الجسد، وتطمئن به القلوب.

فالزواج الذي يحثّ عليه رسول الله ﷺ فيه

مصالح كثيرة، منها حصول الذرية، الذين هم زينة الحياة الدنيا، وقوام دولة الإسلام، في جميع الأعمال.

وسورة النساء فيها حثّ على الزواج، وعلى حسن ولاية اليتامى، ولمن رغب الزواج باليتيمة التي تربّت في كنفه، سواء كان لها مال، أو لم يكن لها، فإن الله سبحانه يأمر بالإحسان إليها، وعدم ظلمها، أو هضمها حقها، سواء في مالها أو صداقها، أو في العشرة، وما إلى ذلك من أمور يتهاون فيها بعض الناس، امتهانًا لحق المرأة، وخاصة إذا كانت يتيمة لا وليّ لها، يدافع عنها، وتستند إليه- بعد الله- في الشكاية.

فراغب الزواج سواء كان شابًا أو أكبر منه، مأمور باحترام المرأة، والإحسان إليها والرأفة بها، حيث أوصى ﷺ بالنساء خيرًا في خطبته بحجة الوداع.

ومن وصية رسول الله ﷺ أنه يحثّ على الرأفة بالنساء، ومراقبة الله في التعامل معهن، وعدم استغلال ضعفهن، فلا يُضْرَبْن- إلا في أضيق الحدود- ولا يُقْسَى عليهن، وهذا ما يجب أن يضعه راغب الزواج بين عينيه، إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، إذا لم يعجبه منها خلق أو طبع، وعليه أن يقتدي برسول الله ﷺ في معاملته مع نسائه، فقد كان يساعدهن في أعمالهن، وكان يمازحهن، ويسابق عائشة، ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

وإن من النصائح الملائمة التي تقدم لراغبي الزواج: التأدب بأدب رسول الله ﷺ، والتأسي بسنته، في التعامل مع النساء، واحترام مشاعرهن وأحاسيسهن: قولية، أو فعلية، أو تقريرية، حيث يدعو عليه الصلاة والسلام ربّه في عدله مع نسائه، وقسمته فيما بينهن، ويقول: «اللهم إن هذا قَسْمي فيما أملك، فتجاوز عما لا أملك وتملك». وهذا لمن عنده أكثر من واحدة؛ لأن الله يأمر بالعدل بينهن.

ولما كان الزواج دين الأنبياء، وهم صفوة الخلق، وقد تحدث الله في كتابه عن أزواجهم وذرياتهم، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ الآية [الرعد: ٣٨]. فإنه يجب على كل مستطيع المبادرة إلى الزواج؛ لأن الإعراض عنه، إعراض عن الأهل والولد، ومن التبتل(١) الذي لا يحبه الله ولا رسوله ﷺ، وليس هو من دين الأنبياء قبلنا.. ولما رأى رسول الله ﷺ نفرًا من أصحابه أرادوا التبتل والإعراض عن الزواج واعتزال النساء غضب، وقال للناس عليه الصلاة والسلام ضمن ذلك الحديث: «وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول لمن يريد أن ينصحه: تزوّج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً، كما يجب أن يدرك المقبل على الزواج: أن في الزواج مصالح كثيرة، منها تحصين نفسه، وتحصين زوجته؛ ليعقد كلٌّ منهما طرفه على الطرف الآخر، وأن يختار الصالحة في نفسها، الدّينة في عبادتها وعلاقتها بربها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «تُنكح المرأة لمالها ولجمالها، ولحسبها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وأن يبتعد عن سيئة الخلُق، رديئة الطباع، التي لا تحترم زوجها، ولا تبالي بتعاليم دينها، استهانة أو تقصيرًا، وأهم شيء في الناحية الدينية: أداء الصلاة، والتنزه عن النجاسة؛ لأن ذلك مما تتساهل فيه بعض النساء في هذا العصر، فالصلاة عمود الإسلام، ومن تركها كفر، ولا تصح الصلاة بدون طهارة.

وعدم الاقتران بكبيرة السنّ التي وصلت إلى سن اليأس، حيث لا يحصل معها مقصد الزواج: من الولد وسكن القلب. ومثل ذلك العقيم التي لا تلد، والمريضة بمرض معدٍ، كما يجب التشديد في البعد عن الزواج بالأجنبية التي عاشت في بيئة غير إسلامية، أو في بيئة إسلامية غير ملتزمة؛ لتفاوت المفاهيم والطباع، مما يحصل معه مشكلات عديدة تنعكس على حصيلة الزواج، وهم الأولاد بعدما يكبرون، وتتفتح مداركهم.

والتكافؤ في الزواج من الأمور المهمة، التي تجعل الحياة الزوجية هانئة هادئة، لا منغصات فيها، ولا مشكلات؛ لأن كثيرًا من الزيجات، تنقلب بعد فترة من الاقتران، إلى قلاقل وتذبذب، واضطراب وتأرجح، يميل إلى انفصام عرى هذه العلاقة، وما ذلك إلا أنه لم يؤخذ في الحسبان عند البداية مبدأ التكافؤ، الذي يدخل فيه في وقتنا الحاضر: المستوى العلميّ، لكل من الزوجين، والتقارب الثقافي، والتخصص العلمي، والدخل والمركز الاجتماعي. والشاعر يقول:

فكّر لنفسك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلجًا عن غرة زلفا

والاهتمام بنجابة الأولاد، لأنهم الذكر الحسن للإنسان، ومن العمل الصالح الذي يلحقه بعد موته، إذا أصلحهم الله، واستمروا في الدعاء لوالديهم، وذلك باختيار الأم ومنبتها: صحة وعراقة، وذكاء ونجابة.

وعمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه يقول في توصيته لمن يرغب في الزواج: (اختاروا لنطفكم فإن العرق دسّاس)، فالصحة والأمراض الوراثية والجريمة أمنيًا، وخبرة الناس اجتماعيًا: كل هذا أثبتت النتائج انعكاس أثره على الأبناء، كما قال ﷺ: «لعله نزعه عِرْق»؛ ولذا يحسن الاختيار وتوخّي النقاء والطهارة في الصفات العديدة.

ومن النعم العظيمة التي ينعم اللَّه بها على العبد: زوجة صالحة، محافظة على نفسها ودينها، ومن أشد النقم على العبد: زوجة طائشة سيئة الخلق؛ ولذا يجب اختيار الزوجة من بيت شريف، طاهر ومعروف أهله بالديانة وحسن الخلق، حتى تكون الكفاءة مراعاة.. كما يجب مراعاة:

● الاقتصاد وعدم التبذير، أو الإسراف في تكاليف الزواج، فخير النساء أيسرهن مهورًا، إذْ ليس الفرح بأن يزين الإنسان بيته بالمظاهر التي تزينه من فرش وأنوار، ولا بالطرب والغناء الممنوع شرعًا، ولا بالمسرات التي تجلب الحسرة والندامة على الزوجين، وذلك بإنفاق ما لا يطيقه الزوج؛ ليكون بعد انتهاء ما يسمونه فرح الزواج، قد خرج منه مثقلاً بالديون، ولكنّ الفرح الذي يجب مراعاته أن يراعى فيه البساطة بقدر ما يستطيعه الزوج: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، حتى يعيش مع زوجته في وفاق وراحة نفس، بعد أن حرصوا على الاقتصاد ليوفروا لأنفسهم وأولادهم مسكنهم وما يكفيهم عن مدّ الأيدي للناس.

● إذا صدق الإنسان في نيّته بالزواج، فإن الله سوف يعينه على تسهيل مسبباته، وتخفيف نفقته، ولذا يجب أن لا يكون المقصد من الزواج الطمع المادي في المرأة ومالها ومُرتَّبِها إن كانت موظفة، ولا في سلب قدرات الزوج المالية، التي سيكون أغلبها ديونًا ينوء كاهله بها سنوات عديدة، وإنما الهدف من هذا الزواج العفّة، واتباع السنة المحمدية في الزواج، بتخفيف مؤنته، وتيسير أمره، فخير النساء، أيسرهن مهرًا، وعلى ولي أمر الزوجة، أن يكون معينًا في هذا السبيل، بما يستطيع من كبح رغبات النساء في حبهن للمظاهر والتفاخر، والمحاكاة والتقليد.

● ويجب أن يؤخذ في الحسبان أن الزوجة الصالحة معينة للرجل على طاعة الله، ومربية لأولادها على أمر الله، وأمر رسوله ﷺ، وأن الحياة بينها وبين زوجها حياة مشتركة في العاطفة والمودة، وفي السكن والتفاهم على أمور الدين والدنيا، وكل منهما معين لصاحبه، على ما يرضي الله، ووفق سنة رسول الله ﷺ، مما يحصل معه قول الله سبحانه في صفة المؤمنين، ودعائهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

والله ولي التوفيق.

الهوامش :

(١) التبتل المنهي عنه بمعنى الإعراض عن الزواج، وهو غير التبتل المأمور به في الآية، فهو بمعنى الإنابة.

○○○

ما أشبه الليل بالبارحة

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر

منذ فجر التاريخ وأعداء دين الله، يجدّون ويجتهدون، للصدّ عن الحق، والتنفير من داعي الهدى، ويضعون الشبهات، المراد بها البلبلة والتنفير عن السماع وفي الاستجابة، يتعاون في هذا أعداء الله من شياطين الإنس والجنّ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

كل العداوة قد ترجى مودّتها

إلا عداوة من عاداك في الدين

وفي كتاب الله خير شاهد، فكل نبيّ من أنبياء الله، كان له مع قومه مواقف وافتراءات لصدّ الناس عن الاستجابة لدعوته، وفي قصصهم عبرة.

ولما كانت النبوة قد انتهت بمحمد ﷺ، فإنه أخبر بأن الله يبعث لأمته من يجدد لها دينها، على رأس كل قرن، وقد ذكر المؤرخون نماذج منهم، وما حصل لهم، ونحتسب على الله أن يكون الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥- ١٢٠٦هـ) منهم، وفي باب التنفير من دعوته الاصلاحية التجديدية،..... أذهان الأعداء على نبذها بالوهابية.

فقد وجدوا ثوبًا جاهزًا، هو الوهابية الرشمية الخارجية الموجودة في الشمال الأفريقي في القرن الثامن الهجري، مع التباين بين الدعوتين؛ لأن عبد الوهاب بن رستم خارجي أباضي عطّل كثيرًا من تعاليم الإسلام، فوقف ضد دعوته علماء الأندلس والمغرب ردودًا ومحاربة، كما أبنت ذلك في كتابي «تصحيح خطأ تاريخ الوهابية».

وهذا هو الشأن في كل دعوة يريد صاحبها محاربة البدع، والعودة بالناس إلى صفاء الإسلام، ونقاوته، على درب محمد ﷺ وأصحابه الكرام، يقف أعداء الله وأعداء دينه الحق من شياطين الإنس والجنّ الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، يصدون عن شرع الله الذي شرع لعباده عداوة وحسدًا.

وأجد من المناسب في هذا أن بين ما عاناه الشيخ عبد الحميد بن باديس، أحد المجدّدين للدعوة في العصر الحاضر بالجزائر، وما لقي كغيره من الدعاة، ويعبّر عن ذلك ما كتبه في العدد ٣ السنة الأولى من صحيفة السنة، تحت عنوان: عبداويون ثم وهّابيون، ثم ماذا... لا ندري والله، حيث قال في ص١ تاريخ ١٣٥١هـ:

لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسطينة عام ١٣٣٢هـ، وعزمنا على القيام بالتدريس، أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة العربية، وآدابها والتفسير والحديث والأصول، ومبادئ التاريخ والجغرافيا، ومبادئ الحساب وغير هذا، رأينا لزوم تقسيم

المعلمين إلى طبقات، واخترنا للطبقة الصغرى منهم بعض الكتب الابتدائية، التي وضعتها وزارة المعارف المصرية أو أحدثنا تغييرًا في أساليب التعليم، وأخذنا نحثّ على جميع العلوم باللسان العربي، ونجيب الناس في فهم القرآن، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية، والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية، ونرغبهم في مطالعة كتب الاقدمين، لما قمنا بهذا وأعلناه، قامت علينا قيامة أهل الجمود والركود، وصاروا يدعون للتنفير منا والحط من قدرنا، «عبداويون» دون أن أكون والله، يوم جئت قسنطينة، قرأت من كتب الشيخ محمد عبده، إلا القليل، فلم نلتفت إلى قولهم، ولم نكترث لإنكارهم، على كثرة سوادهم، وشدة مكرهم وعظم كيدهم.

ومضينا على ما رسمنا، وصمدنا إلى ما قصدنا من غاية، وقفيناها عشر سنوات في الدرس، لتكوين نشأ علمي لم نخلط به غيره، فلما كملت العشر وظهرت- بحمد الله- نتيجتها، رأينا واجبًا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص، والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة، وهدي صالح سلف الأمة، طرح البدع والضلالات، ومفاسد العادات، فكان لزامًا أن نؤسس لدعوتنا صحافة، تبلّغها للناس، فكان «المنتقد»، وكان «الشهاب».

ونهض كتّاب القطر، ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام، وفتحوا بكتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ، أعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وكانت هذه المرة غضبة الباطل أشدّ، ونطاق فتنته أوسع، وسواد اتباعه أكثر، وأصبحت الجماعة الداعية إلى الله يُدعون «الوهابيين» الداعين إلى أنفسهم، ولا والله ما كنت قرأت يومئذ كتابًا واحدًا لابن عبد الوهاب، ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل.

وإنما هي إفك قوم يحرّفون الكلم، ويهرفون بما لا يعرفون، ويحاولون إطفاء نور الله، ما لا يستطيعون، وسنعرض عنهم اليوم، وهم يدعوننا «وهابيين» كما أعرضنا عنهم بالأمس وهم يدعوننا «عبداويين»، ولسنا ندري ماذا يسموننا بعد ذلك، لكننا سائرون من أجل ديننا الحقّ في طريق الإصلاح ومحاربة البدع.

ولنا أسوة بمواقف أمثالنا مع أمثالهم في الماضين، ولما كان من سنة الله التنبيه على مشابهة اللاحقين من الناس، للسابقين في منازعهم وأهوائهم، وكثير من أحوالهم، حتى كان التاريخ يعيد نفسه بإعادة ذلك فيهم، فقد جاء ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وغيرها من الآيات الكريمات.

لما كان هذا سنة الله في خلقه، فتحنا هذا الباب تحت عنوان: التاريخ يعيد نفسه، لننشر فيه ما أمكننا من قصص عن حياة رجال السنّة المصلحين، مع دعاة البدعة المبطلين، نزيد العالم المصلح ثباتًا على الحقّ، والقارئ الصادق تبصرة في الأمر: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

هذه الكلمة تبيّن أن شبهات أهل الباطل واحدة، تتكرر في كل زمان ومكان، ويجب ألا تزحزح أهل الحق عن حقهم لأنه دين الله الذي لا يقبل من البشر غيره، والحق بثبات أهله عليه واعتصامهم بالله فيه، يدفع الباطل ويزهقه، فعليهم الصبر والعمل، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والله من وراء القصد